جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالديدامون – شرقية

الوسطية العقدية وأثرها على الفرد والمجتمع
العقيدة الماتريدية نموذجًا

إعداد

دكتور: على أحمد التجاني علي

المدرس بقسم العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية بنين بالشرقية – جامعة الأزهر

alitijani.sha.b@azhar.edu.eg

المؤتمر العلمي الدولي الأول

١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

الوسطية العقدية وأثرها على الفرد والمجتمع العقيدة الماتريدية نموذجاً

على أحمد التجاني علي

قسم: العقيدة والفلسفة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

بالديدامون – شرقية المدينة: فاقوس جامعة الأزهر

الدولة: جمهورية مصر العربية

ملخص البحث

الوسطية تمثل مركز الوحدة ونقطة التلاقي والتوازن، فعلى حين تتعدد الأطراف ،يبقى الوسط واحداً يمكن لكل الأطراف أن تلتقي عنده ،فهو المنتصف وهو طريق الوحدة الفكرية ومركزها ومنبعها، ولهذا تثير المذاهب والأفكار المتطرفة من الفرقة والخلاف بين أبناء الأمة الواحدة ما لا تثيره المذاهب المعتدلة في العادة، ولهذه المزايا والفوائد التي ذكرناها للوسطية حرص أتباع أبي منصور الماتريدي المعروفون بالماتريدية من تأصيل هذه الوسطية وتطبيقها في مجال العقيدة الإسلامية وذلك من خلال بيان أن العقيدة الإسلامية هي عقيدة وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدرا لمعرفة حقائق الوجود ،وبين الذين لا يؤمنون إلا بالوحي والإلهام ، فالإسلام يؤمن بالعقل ،ويدعوه للنظر والتفكر وكذلك يؤمن بالوحي مكملا للعقل ومعينا له فيما تضل فيه العقول وتختلف، وهاديا له إلى ما ليس من اختصاصه ولا هو في مقدوره من الغيبيات والسمعيات وطرائق التعبد لله تعالى، وقد ترتب على ذلك فوائد عظيمة على مستوى الفرد والمجتمع مثل إحداث التوازن بين حرية الفرد ومصلحة المجتمع، وكذلك ترسيخ مبدأ الوحدة والأخوة الدينية بين أبنائها على اختلاف مدارسها ومذاهبها واعتبار الفرق المختلفة كلها من الأمة الواحدة ما دامت تصلي إلى القبلة وتؤمن بالقرآن وبالسنة وما يترتب على ذلك من قوة المجتمع ووحدته وبعده عن أخطار الفرقة والتشرذم و وقوفه صفا واحدا في القضايا الكبرى التي تهدد كيانه و وجوده.

الكلمات المفتاحية (الوسطية/ العقدية/ الماتريدية/ العقل/ النقل/ الفرد/ المجتمع)

moderation of faith and its impact on the individual and society The Almatridia is a model

Ali Ahmed Altijani Ali

Department of Faith and Philosophy

Faculty of Islamic studies and Arabic male al-diadamon – sharqia city: Faqus AL-Azhar University country: Arab republic of Egypt

Email:alitijani.sha.b@azhar.edu.eg

Abstract:

Moderation represents the center of unity and the point of convergence ,balance and this is why extremist doctrines arouse the division is what the moderate doctrines do not usually evoke, and for these benefits that we have mentioned for moderation Almatridia were keen to root this Moderation and its application in the field of Islamic belief, by stating that the Islamic creed is a middle faith between those who believe in reason alone as a source of knowledge of the realities of existence, and between those who believe only in revelation and inspiration, but he believes in revelation to complement the mind and this has resulted in great benefits at the individual and community level, such as creating a balance between the individual and the society, as well as establishing the principle of unity and religious brotherhood among its children regardless of its different schools. Its doctrines and the consideration of the different sects are all from the same nation as long as they pray to the qiblah and believe in the Qur'an ,Sunnah and the consequent strength and unity of society and standing one line in the major issues that threaten its existence

Key words (moderation / faith / Almatridia / mind / individual . ./ society)

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه أما بعد ،،

فإن مما يهلك الأمم وقوعها في أحد طريقين :طريق الغلو ،وطريق الانحلال ،والغلو يعني التشدد والتنطع والتعسير على عباد الله تعالى ،وإيقاعهم في الحرج والشدة بتوسيع دائرة الواجبات والمحرمات عليهم ،ورفض الرخص التي رخص الله لهم ،ولهذا جاء الحديث :"إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين "،"هلك المتنطعون" قالها ثلاثا ،ومثل الغلو: التسيب والانحلال والانفراط بتضييع الأوامر والنواهي واستحلال المحرمات ،والتفريط في الواجبات وعدم الوقوف عند حدود الله .

والخير كل الخير في المنهج الوسط الذي يتجنب الافراط والتفريط أو الغلو والتقصير وهو ما دعا إليه القرآن الكريم والسنة النبوية وحث عليه أمة الإسلام الراسخون في العلم ،وهو منهج يتلاءم مع العقل والفطرة، وينسجم مع الفهم الصحيح للإسلام ،كما أنه يتواءم مع منطق العصر، وحاجات الأمة فيه، وعلاقتها بغيرها من الأمم في عصر تقارب الناس فيه حتى غدا العالم قرية واحدة، كما أنه المنهج الذي يعبر عن حقيقة الإسلام وعن خيرية أمته ووسطيتها وشهودها الإيماني والحضاري على الناس .

وسوف نحاول في هذا البحث إبراز أهمية منهج الوسطية العقدية على الفرد وكذلك على المجتمع من خلال نموذج العقيدة الماتريدية ، وقد اخترنا العقيدة الماتريدية لأن الماتريدية :

أحد أئمة أهل السنة وحامي حماها وعلم من أعلام الفكر الإسلامي ،وقد كان من الفطاحل الذين زانوا أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري ،وذلك عندما نقم جمهور المسلمين على المعتزلة بسبب نزعتهم المغالية وانكارها لمسائل عقدية واضحة كرؤية الباري سبحانه وتعالى، وإفراطها في التأويل وردها لأحاديث صحيحة واعتمادها على السلطة لفرض آرائها بالقوة في محنة خلق القرآن، وفي ذلك العصر لم تظهر بين أهل السنة بعد أحمد بن حنبل شخصية علمية قوية يكون لها

القول الفصل فيما أشكل من مثل هذه المسائل ،إذ سرت بينهم نزعة التصلب ،وحاول بعضهم حمل آيات التشبيه على حقيقتها .

لذلك كان الإسلام يومئذ في حاجة ملحة إلى ظهور شخصية تأخذ بالسمع والعقل ،ووجدت هذه الشخصية المطلوبة في شخص أبي منصور الماتريدي فكان "علم الهدى" متكلما بارعا، وأصوليا ماهرا ،وفقيها حرا لا يقل شأنا عن أبي الحسن الأشعري الذي ظهر في هذا العصر بالذات، وقد وجدت آراء أبي منصور الماتريدي صدى لدى الحنفية فكانت العقيدة الرسمية على مدى عشرة قرون ولاتزال تسود جزءًا كبيرًا من العالم الإسلامي حتى الآن بسبب كونها عقيدة وسطية المنهج بين العقل والنقل حيث لا إفراط ولا تفريط

وهذا المنهج وحده –منهج الوسطية والاعتدال –هو حبل النجاة وسفينة الإنقاذ للأمة مما تعانيه من مآس ومشكلات في عصرها الحاضر .

وسوف نعتمد في دراستنا على المنهج التحليلي والمنهج الاستنباطي محاولين الإجابة على التساؤلات التالية :

١- ما هي الوسطية ؟وما هي أهميتها ؟وهل هي في كل المناحي وخصوصا العقائد ؟

٢- ما هي العقيدة ؟وما دورها في حياة الفرد والمجتمع ؟

٣- من هم الماتريدية ؟ وما هو تأثيرهم في جموع المسلمين ؟

٤- ما هو أثر العقيدة الوسطية على الفرد والمجتمع ؟

وقد جاء البحث في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة .

المقدمة بينا فيها أهمية الموضوع، والمناهج المستخدمة في البحث، وأهم الأسئلة المثارة في البحث .

المبحث الأول :ونتعرض فيه للتعرف على المصطلحات التالية :

- الوسطية
- العقيدة
- الماتريدية

- الفرد
- المجتمع

المبحث الثاني :تأصيل فكرة الوسطية العقدية (استخدام العقل والنقل) عند الماتريدية .

المبحث الثالث :تطبيق استخدام الوسطية العقدية (استخدام العقل والنقل) عند الماتريدية.

المبحث الرابع :أثر الوسطية العقدية على الفرد والمجتمع .

الخاتمة وفيها نعرض أهم النتائج التي توصل إليها البحث مع أهم التوصيات .

المبحث الأول

مدخل

الوسطية من مميزات أمة الرسالة؛ فهي التي تؤهلها لأداء الشهادة على الآخرين ،قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً }سورة البقرة آية ١٤٣وهي خاصية أساسية من خصائص هذا الدين ،عقيدة وشريعة ونظاما اجتماعيا وخلقيا وحضاريا وسياسيا، ترتبط وتترجم خاصية أخرى ،هي خاصية التوازن وعدم الميل إلى إحدى طرفي المعادلة ،أي التفريط أو الإفراط.

وإذا كان التاريخ الإسلامي قد شهد حالات من الغلو أو التفريط أو الإفراط، فإن أمر الأمة في غالبه قد استقر على التوسط في جميع مجالات الحياة، العقدية والفقهية والسلوكية والفكرية والسياسية، وفي العلاقة بغير أهل الملة.

والوسطية هي تيار يسعى أن يقدم الإسلام في حقيقته ،ويدعو إليه في صفائه و نقائه، وتوازنه واعتداله، ويحرره مما علق به من بعض مظاهر الغلو ،التي ألصقها به بعض المغالين ،الذين أفسدوا من حيث أرادوا الإصلاح، وأساءوا من حيث ظنوا أنهم يحسنون صنعا، موصولا في ذلك بما أقرته أصول الإسلام ومصادره الأساسية، وبما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ،والصحابة رضوان الله عليهم ،والسلف الصالح ،والمجددون الذين توالوا عبر الأجيال.

أولاً: الوسطيَّة في اللغة(١)

جاءت كلمة (وسط) في اللغة بعدّة معانٍ، لكنها مُتقاربة في مدلولها، ويمكن إجمال المعاني التي جاءت تدلّ عليها هذه الكلمة فيما يلي:١ - (وسْط) بسكون السّين تكون ظرفًا بمعنى (بين)، ٢-وتأتي وسَط بالفتح اسمًا لما بين طرفي الشيء وهو منه، ومن ذلك: جلست وسط الدّار٣- وتأتي بالفتح أيضًا صفة، بمعنى خيار، وأفضل، وأجود، فأوسط الشيء أفضله وخياره: كواسطة القلادة: الجوهر الذي وسطها، وهو أجودها٤- وتأتي وسط بالفتح بمعني عدل قال ابن منظور: ووسط الشيء وأوسطه:

١- لسان العرب/ حرف الواو/ ج١٥/ ط دار المعارف / بدون تاريخ .

أعدله. ٥- وتأتي (وسط) بالفتح أيضًا للشيء بين الجيد و الرديء ٦ - ويقال: (وسط) لما له طرفان مذمومان، يراد به ما كان بينهما سالمًا من الذّمّ، وهو الغالب .

من خلال ذلك كله يتضح أن اللفظة كيفما تصرّفت ،فهي لا تخرج في معناها ،عن معاني العدل والفضل والخيرية، والنصف والبينيَّة، والتوسط بين الطرفين.

ثانياً: مصطلح (وسط) في القرآن الكريم

وردت مادة وسط ومشتقاتها في خمس مواضع من القرآن الكريم نذكر منها:

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً} سورة البقرة آية ١٤٣ يقول الطبري في تفسيره «وأرى أن الله ٠٠٠ إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو ٠٠٠ النصارى الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله ٠٠٠ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها "[١].

تأملات مع آية الوسطية في القران الكريم

وردت الإشارة إلى صفة الوسطية في معرض حديث القرآن عن قضية تغيير القبلة وذلك في قوله تعالى من سورة البقرة: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ٠٠٠٠٠}سورة البقرة آية ١٤٢، تعرض هذه الآية لأسباب تغيير القبلة، وفي نفس الوقت ،تحدد مواصفات الأمة الوسط، فالتأمل في الآية يفضي بنا إلى الخروج بالمواصفات التالية:

الأمة الوسط هي أمة الحق :

فهي أمة قائمة على الحق ، وتدور معه ،لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله، وأمة الوسطية يجب أن تبقى في سعي دائم نحو الحق ،تتمسك به ،وتنتقل فيه من الفاضل إلى الأفضل،ولقد كان تغيير القبلة ابتلاء للأمة الإسلامية ؛ليعلم الله تعالى هل ستثبت على الحق و على متابعة الرسول، أم أنها ستنقلب على عقبيها؟.

---

[١] - تفسير الطبري / تحقيق د بشار عواد معروفو عصام فارس/ ط مؤسسة الرسالة/ ط١/ ١٩٩٤م/ بيروت

الأمة الوسط هي أمة المرجعية :

والأمة الوسط ليست أمة متروكة على هواها، كما أنها لا تصدر أحكامها من فراغ ،بل إنها مشمولة بعناية الوحي، ومعصومة بهدايته ،ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) البقرة ١٤٣ آية .

الأمة الوسط هي أمة السعي والحركة :

والأمة الوسط ،هي أمة عمل واجتهاد وانتشار في الأرض ،وضرب في مناكبها ؛ابتغاء رزق الله وفضله، لكن ذلك السعي لا يمنعها أن تبقى موصولة بذكر الله وعبادته ،و بالقبلة التي هي وجهة المسلم في أهم أعمال حياته، ألا وهي الصلاة التي إن صلحت صلح سائر أعماله وإن فسدت فسد سائر أعماله .

الأمة الوسط هي أمة العدل :

فهي الأمة التي تضع الأمور في نصابها ،وتحقق التوازن في حياتها ،إذ الوسط كما ورد هو العدل، وهذا الدين لم يأت إلا ليقوم الناس بالعدل والقسط، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }سورة الحديد آية ٢٥،ومهمة المجتمع الإسلامي هي القيام على القسط وإقامة العدل .

الوسطية توازن واستقامة:

والوسطية بهذا المعنى، الذي يفيد التوازن والتزام قاعدة (لا إفراط ولا تفريط) لا تعني الهروب من المواقف الصعبة، ولا هي العكس، وليست هي انعدام الموقف الواضح المحدد من المشكلات، بل هي تعبير عن خاصية التوازن في جميع الأمور والمواقع ، ولذلك فإن من الواضح أن الوسطية هي موضوع اجتهاد وجهاد متواصلين للعمل وفق القاعدة: «لا إفراط ولا تفريط».

-الوسطية إذن ،هي منهج في فهم الدين والعمل به ،يقوم على نبذ الغلو والتزيد -بالتشديد - على النفس أو التشديد على الآخرين، كما يقوم على نبذ التفريط والتضييع لعقيدة التوحيد ،وأحكام الشريعة وآداب الإسلام وأخلاقه وأنظمته.

ثالثاً: مصطلح الوسط في السنّة :

وردت كلمة وسط في سياق عدة أحاديث نبوية شريفة منها:

-عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنا عند النبي، صلى الله عليه وسلم فخطّ خطًّا، وخطَّ خطَّين عن يمينه، وخطَّ خطَّين عن يساره، ثم وضع يده على الخطّ الأوسط، فقال: «هذه سبيل الله»(سنن ابن ماجه)، ثم تلا هذه الآية: {وأنّ هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله}الأنعام آية ١٥٣.

من خلال ما سبق اتضح لنا أن كلمة (وسط) ،تستعمل في معان عدة أهمها :بمعنى :الخيار والأفضل والعدل ،وقد ترد لما بين شيئين فاضلين ،وتستعمل لما كان بين شرين وهو خير ،وتستعمل لما كان بين الجيد والرديء ،والخير والشر ،وقد تطلق على ما كان بين شيئين حسا كوسط الطريق، ووسط العصا .

ونخلص من استقراء مختلف السياقات القرآنية والحديثية السابقة، إلى أن الوسطيَّة هي: مؤهل الأمة الإسلامية من الخيرية والعدالة، للقيام بالشهادة على الناس جميعا، وإقامة الحجَّة عليهم.

على أن هذا المصطلح، لا يصحّ إطلاقه إلا إذا توافرت فيه صفتان :الخيريَّة، أو ما يدلّ عليها كالأعدل والأفضل، والبينيَّة، سواء أكانت معنويَّةأو حسية ، فإذا جاء أحد الوصفين دون الآخر فلا يكون داخلا في مصطلح الوسطيَّة .

رابعاً: مصطلحات ملازمة لمصطلح الوسطية

لقد تبينَّ لنا ،أنَّ الوسطيَّة لا بدّ لها من توافر أمرين، وهما: الخيريَّة والبينيَّة، ولا مجال لتحقق هذين الشرطين إلا بالابتعاد عن الغلو من جهة وباجتناب التفريط من جهة أخرى، أي بالتزام الصراط المستقيم، لذلك إتماما لمعنى الوسطية نتوقف عند بيان دلالة المصطلحات التالية :الغلو- التفريط- الصّراط المستقيم.

أولا: الغلو والإفراط:

عرَّف أهل اللغة الغلوّ بأنَّه مجاوزة الحدّ، قال في لسان العرب: وغلا في الدّين والأمر يغلو غلوًّا: جاوز حدَّه.

الغلو في القرآن الكريم وقد وردت في القرآن الكريم آيتان فيهما النَّهي عن الغلوّ بلفظه الصَّريح، منها قوله تعالىٰ (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ)سورة النساء الآية ٥٩،قال الطبري: لا تجاوزوا الحقّ في دينكم فَتُفْرِطُوا فيه. وأصل الغلو في كل شيء مجاوزة حدّه(١).

الغلو في السنة:

وقد وردت بعض الأحاديث التي تنهىٰ عن الغلوّ، وذِكْرُ بعضها يساعد علىٰ فَهم معناه وحدّه :

-عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم «هلك المتنطّعون» (صحيح مسلم)قالها ثلاثًا، هلك المتنطّعون: أي المتعمِّقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

مظاهر الغلو وتجلياته ومجالات:

والغلو أصناف وألوان: فقد يكون غلوا في العقيدة، وقد يكون غلوا في العبادة، وقد يكون غلوا في المعاملات، وقد يكون غلوا في المنهج الفكري والخط الدعوي والسياسي، ونقف هنا عند بعض مظاهر الغلو وتجلياته في هذه المجالات .

الغلو في العقيدة :أما الغلو في العقيدة فيتمثل في تألّيه غير الله والإشراك به ، أو بتعطيل صفاته الواجبة له، وفي ذلك تجاوز للحد ،وتنكب عن الوسطية ،التي هي الالتزام في الاعتقاد بما وصف الله تعالىٰ به نفسه من أوصاف الكمال، وبعين ما نفاه عن ذاته من أوصاف النقص،ومن نماذج ذلك ما حدث مع النصارىٰ الذين غلوا في المسيح حينما اتخذوه إلها، وحينما اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ،كما جاء في قوله تعالىٰ: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ}النساء آية ١٧١ .

الغلو في العبادة :والغلو كما يتسرب للعقيدة ،فإنه يتسرب للعبادة، ومنشأ هذا النوع من الغلو، ترك الاتباع لسنة النبي صلىٰ الله عليه وسلم، حيث تميل بعض النفوس والعقول الضعيفة، إلىٰ

---

١ – تفسير الطبري / سورة النساء / الآية ٥٩ .

التزيد في العبادة على الحد المشروع، وتتعدى الكيفية المشروعة ؛ظنا منها بذلك أنها تتقرب إلى الله، في حين أن ذلك هو عين البدعة المذمومة ،و أن الأصل في العبادة هو الاتباع.

ثانيا: الإفراط والتفريط

الإفراط والتفريط لغة: الإفراط هو: التقدّم ومجاوزة الحدّ ،قال في لسان العرب: وأمر فُرُط، أي: مجاوز فيه الحدّ ،والفُرطة – بالضم –: اسم للخروج والتقدّم. وأمَّا التَّفريط فهو التَّواني، يُقال منه: فرَّطت في هذا الأمر حتى فات، إذا توانى فيه.

الإفراط والتفريط في القرآن

وردت مشتقات كلمتي الإفراط والتفريط في عدة مواقع من القرآن الكريم ،تناولها علماؤنا الأجلاء من المفسرين ،نذكر منها ما ورد في سورة طه ،حينما أمر الله سبحانه وتعالى موسى وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون، ويقولا له قولا لينا؛ لعله يتذكر أو يخشى ،فكان جوابهما كما أثبته القرآن الكريم (قالا ربنا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى) طه آية ٤٥ ،قال الطبري: «وأما الإفراط فهو الإسراف والإشطاط والتعدّي، يقال منه، أفرطت في قولك، إذا أسرف فيه وتعدَّى.

الإفراط و التفريط في السنة

ورد التفريط في الحديث النبوي ،بمعنى التقصير والتَّضييع والتَّرك ،ومنه: «أنَّه نام عن العشاء حتى تفرّطت»[1] أي: فات وقتها قبل أدائها ، وفرّط في الأمر يُفرِّط فرطًا، أي: قصَّر فيه وضيَّعه حتى فات.

من خلال الآيات والأحاديث و أقوال السادة المفسّرين ،يتضح أن الإفراط هو التعدي بتجاوز الحد المسنون في العبادات، وذلك في مقابل التفريط ،وهو وجه آخر للتعدي ،يتمثل في تَّضييع الأوامر الشرعية والتَّقصير فيها، والتَّرك لها والتَّهاون في أدائها، وكلا الأمرين مخالف للوسطية القائمة على التوازن.

---

[1] – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ أبو نعيم الأصفهاني / من الطبقة الأولى من ةالتابعين/ ابن سيرين/ ط دار الفكر / ١٩٩٦م/ بيروت لبنان.

الصراط المستقيم:

الوسطية ترتبط ارتباطا وثيقا بالاستقامة؛ فالصّراط المستقيم يدلّ على الوسطيَّة في مفهومها، إذ أن خاصيتي البينية والخيرية الملازمتين لمفهوم الوسطيَّة ،متحققتان أيضا في معنى الصّراط المستقيم،فنجد في سورة الفاتحة لمَّا قال تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}الفاتحة آية٦،عرَّفه فقال الصّراط المستقيم: طريق الخيار، وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين، وهو بين طريقي المغضوب عليهم والضّالين .

خامساً: مجالات وتجليات للوسطية :-

وللوسطية مظاهر وتجليات ،في العقيدة والعبادة والأخلاق ،والنظام السياسي الاقتصادي والاجتماعي ، وفي السلوك الفردي والجماعي.

١ـ وسطية العقيدة والتصور:

إن أول تجلّ للوسطية ،يظهر في مجال العقيدة ،حيث جاءت عقيدة التوحيد في الإسلام ،موافقة للفطرة النقية في ووضوحها واستقامتها ،بعيدا عن الانحرافات التي وقعت عند اليهود الذين قالوا: (يد الله مغلولة) المائدة آية ٦٤،وإشراك النصارى الذين قالوا: (المسيح ابن الله)التوبة آية ٣٠، وجفاء الماديين الذين ينكرون الغيب ؛فقالوا (نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)، وشطحات الروحانيين الذين لا يعيشون عالم الأشباح ،كما أن منهج القرآن الكريم والسنة النبوية في تقرير حقائق العقيدة في العقول وآثارها في النفوس ،لم يعتمد على المنهج الفلسفي النظري ،ولا على مناهج غلاة المتصوفة الذين أسقطوا كليا العقل، بل إنه جعل التأمل والنظر في خلق الله ،واستخدام هبة العقل ،سبيلا لمعرفة الخالق وبدائع صنعه، فجاء منهجا يتكامل فيه الإدراك العقلي مع النص العقدي ؛فتكامل بذلك طريقا المعرفة النقلية والمعرفة العقلية ،في صياغة عقيدة الإنسان المسلم ،وصياغة وجدانه وسلوكه، فالعقل يضيء والنقل يرشد ،والعقل يشير والنقل يحكم.

٢ـ الوسطية في العبادة.

النبي صلى الله عليه وسلم ،قد نهى عن الغلو في العبادة ،و هو الخروج عما جاءت به سنته صلى الله عليه وسلم، إذ إن الأصل في العبادة هو الاتباع، ذلك أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المجال هو الوسط ،وما عداه لا يعدو أن يكون إما إفراطا أو تفريطا ،والأحاديث الواردة في هذا الباب كثيرة، نذكر منها حديث عائشة – رضي الله عنها – «أن النبي، صلى الله عليه وسلم دخل وعندها امرأة قال: من هذه؟ قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال: مه، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملّوا»، هذا الحديث وأحاديث أخرى صريحة في رسم منهج الوسطيَّة في العبادة .

٣ الوسطية في البناء الاجتماعي:

المجتمع الإسلامي مجتمع عقدي ، وتنضبط العلاقات داخله على أساس أحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها ، لذلك فإن خصائص الوسطية، تنطبع على نظرة الإسلام للبناء الاجتماعي.

وإذا كانت الوسطية والتوازنية تعنيان صياغة إنسانية للمجتمع ،وذلك يعني الاعتراف بالجوانب الإنسانية كلها في انسجام وتكامل، كان من أبرز خصائص المنهج الإسلامي في علاج القضايا الاجتماعية والاقتصادية أنه لا يقيم البناء الاجتماعي، على أساس الصراع بين الأفراد أو الطبقات، إذ إنه قبل أن يضع القوانين، ، يقيم دعامات أخرى إنسانية تشيع بين الناس أواصر الرحمة، والحب، والتسامح والفضل والتعاون، ومراقبة الضمير، وخشية الله وإلى غير ذلك من المعاني.

٤ـ الوسطية في العلاقة مع الآخرين

ومن أهم مجالات وتجليات الوسطية في العصر الراهن ،التزام المسلمين الوسطية والعدل في العلاقة مع غير أهل الإسلام، سواء كانوا من المواطنين أم لا[١]، ومبنى الوسطية في هذا المجال عدم السقوط في الولاء المحرم شرعا لمن يحاربون المسلمين ويصدون عنه ، أو السقوط في الاعتداء على غير المسلمين من المواطنين أو من غيرهم ممن لهم حكم المعاهد ،مادام قد دخل إلى بلاد المسلمين غير

---

[١] – كتاب ما المجتمع / ج٣/ ص١٠٥٥/ المجلس الأعلى للثقافة / ط١/ ٢٠٠٥.

محارب، وبناء على «عهد» وهو ما تترجمه اليوم القوانين والإجراءات المنظمة لدخول غير المسلمين بلاد الإسلام والإقامة فيها .

ولقد جاءت هذه الوسطية وذلك التوازن في العلاقة مع غير المسلمين واضحين ،في قوله تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) الممتحنة آية٨.

وهذا البر والقسط مطلوبان من المسلم في علاقته بالناس والخلق كافة، ماداموا مسالمين غير معتدين، ولا يقاتلونه في دينه، أما عن الآيات التي وردت عن النهي عن موالاه غير المسلمين أو غير المؤمنين تحكمها ضوابط عديدة منها :

أن النهي، ليس عن اتخاذ المخالفين في الدين أولياء ،بوصفهم شركاء وطن أو جيران دار أو زملاء حياة، إنما هو عن تولهم بوصفهم جماعة معادية للمسلمين، وتحارب الله ورسوله وتصد عن دين الله.

إن المودة المنهي عنها هي مودة المحاربين لله ورسوله، لا مودة مجرد المخالفين لنا في الدين .

إن غير المسلم الذي لا يحارب الإسلام ،قد تكون مودته واجبة وصلته فريضة دينية، وذلك شأن الزوجة الكتابية وأهلها ،الذين هم أخوال أبناء المسلم وجدته وجده .

ومعنى ذلك ،أن العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين في المجتمعات الإسلامية ،هي بالأساس علاقات مواطنة، فالمسلم مثله مثل غير المسلم ،يربطه بالدولة عقد يرتب له حقوقا ويلزمه بعدد من الواجبات، ولقد تجلى هذا المعنى منذ اللحظة الأولى لتأسيس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، إذ كان من بدايات الأعمال التي قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كتابة الصحيفة التي تنظم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين من سكان المدينة ،و التي عرفت باسم «صحيفة المدينة،» وعلى أساس نصوص هذه الوثيقة النبوية، مضت الحياة في المدينة المنورة إلى أن نقض اليهود العهود، فكانت مقاتلة اليهود وإخراجهم من المدينة على أساس نقضهم لعهدهم وخروجهم على ذلك الدستور، لا على أساس

مخالفتهم للمسلمين في العقيدة ،تماما كما كان يمكن أن يقاتل أي مواطن، ولو كان مسلما آخر، إذا بغى وأخل بمثياق المواطنة ومقتضياتها.

العقيدة الإسلامية:

هي الإيمان الجازم بربوبية الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وسائر ما ثبت من أمور الغيب، وأصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله تعالى في الأمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

والعقيدة الإسلامية: إذا أطلقت فهي عقيدة أهل السنة والجماعة؛ لأنها هي الإسلام الذي ارتضاه الله ديناً لعباده، وهي عقيدة القرون الثلاثة المفضلة من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان.

العقيدة في اللغة(١):

من العقد؛ وهو الربط، والإبرام، والإحكام، والتوثق، والشد بقوة، والتماسك، والمراصة، والإثبات؛ ومنه اليقين والجزم. والعقد نقيض الحل، ويقال: عقده يعقده عقداً.

العقيدة في الاصطلاح العام (٢):

هي الأمور التي يجب أن يصدق بها القلب، وتطمئن إليها النفس؛ حتى تكون يقيناً ثابتاً لا يمازجها ريب، ولا يخالطها شك، أي: الإيمان الجازم الذي لا يتطرق إليه شك لدى معتقده، ويجب أن يكون مطابقاً للواقع، لا يقبل شكاً ولا ظنا؛ فإن لم يصل العلم إلى درجة اليقين الجازم لا يسمى عقيدة

أركان الإيمان الستة

الإيمان بالله، الإيمان بالملائكة، الإيمان بالكتب السماوية، الإيمان بالرسل، الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالقدر خيره وشره.

□

---

١ – لسان العرب / حرف العين / ج١٠/ ص ٢٢١.

٢ – قانون التأسيس العقدي / سلطان العميري / ط تكوين / ٢٠٢٠م.

أهميّة العقيدة الإسلاميّة:

إنّ للعقيدة الإسلاميّة أهميّةً كبيرةً؛ حيث إنّ ترسيخ الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه يؤدّي إلى توجيه السّلوك وإلى البعد عن المعاصي والذنوب؛ باستشعار رقابة الله تعالى، وإلى الاهتمام بالقيم والمبادئ مثل التكافل والتضامن والشعور بالأخوة، وما يترتب على ذلك من فوائد وثمرات، بالنسبة للفرد وللمجتمع، والحث على العمل الصالح، النافع للفرد وللأمة كلها، بالإضافة إلى تحقيق العبوديّة لله تعالى، من خلال توحيده في ألوهيّته، وربوبيّته، وأسمائه وصفاته.

المَاتُرِيدِيّةُ[1]:

نسبة إلى إمامها ومؤسسها أبي منصور الماتريدي، الذي ينتهي نسبه إلى الصحابي أبي أيوب الأنصاري، هي مدرسة إسلامية سنية، ظهرت في أوائل القرن الرابع الهجري في سمرقند من بلاد ما وراء النهر.

أصبحت فرقة كلامية يمكن إجمالها في أربع مراحل رئيسية كالتالي:

مرحلة التأسيس(٣٣٣.٠٠٠هـ) :

والتي اتسمت بكثرة المناظرات مع المعتزلة، وصاحب هذه المرحلة: أبو منصور الماتريدي الذي عاصر الأشعري، وعاش النزاع بين أهل الحديث وأهل الكلام من المعتزلة وغيرهم، فكانت له جولاته ضد المعتزلة وغيرهم، ولكن بمنهج غير منهاج الأشعري، وإن اجتمعا في كثير من النتائج، غير أن التاريخ لا يثبت لهما لقاء أو مراسلات بينهما أو الاطلاع على كتب بعضهما ،توفي عام ٣٣٣هـ ودفن بسمرقند، وله مؤلفات كثيرة: في أصول الفقه والتفسير. ومن أشهرها: (تأويلات أهل السنة) أو (تأويلات القرآن) وفيه تناول نصوص القرآن الكريم، بالشرح والتوضيح، و من أشهر كتبه في علم الكلام كتاب (التوحيد) وفيه قرر نظرياته الكلامية، وبيَّن معتقده في أهم المسائل الاعتقادية، كما ينسب إليه شرح كتاب (الفقه الأكبر) للإمام أبي حنيفة، وله في الردود على المعتزلة (رد الأصول

---

[1] – التعريف بالماتريدية / د.عواد محمود عواد سالم/ ص بتصرف١٣٨٥(حولية أصول الدين بالقاهرة٢٠١٥)

الخمسة)، وأيضاً في الرد على الروافض (رد كتاب الإمامة) ، وفي الرد على القرامطة (الرد على فروع القرامطة).

مرحلة التكوين: (٣٣٣-٥٠٠هـ):

وهي مرحلة تلامذة الماتريدي ومن تأثر به من بعده، وفيه أصبحت فرقة كلامية ظهرت أولاً بسمرقند، وعملت على نشر أفكار إمامهم وشيخهم ، ودافعوا عنها، وصنفوا التصانيف متبعين مذهب أبي حنيفة في الفروع ، فزاعت العقيدة الماتريدية في تلك البلاد أكثر من غيرها، ومن أشهر أصحاب هذه المرحلة: أبو القاسم إسحاق بن محمد بن إسماعيل الحكيم السمرقندي (٣٤٢هـ)، وأبو محمد عبد الكريم بن موسى بن عيسى البزدوي (٣٩٠هـ)، ثم تلى ذلك مرحلة أخرى تُعتبر امتداداً للمرحلة السابقة، ومن أهم وأبرز شخصياتها: أبو اليسر البزدوي (٤٢١-٤٩٣هـ

مرحلة التأليف والتأصيل للعقيدة الماتريدية: (٥٠٠-٧٠٠هـ):

وامتازت بكثرة التأليف وجمع الأدلة للعقيدة الماتريدية؛ ولذا فهي أكبر من الأدوار السابقة في تأسيس العقيدة، ومن أهم أعيان هذه المرحلة:أبو المعين النسفي (٤٣٨-٥٠٨هـ) ، يقول فتح الله خليف: "ويعتبر الإمام ! أبو المعين النسفي من أكبر من قام بنصرة مذهب الماتريدي، وهو بين الماتريدية كالباقلاني والغزالي بين الأشاعرة، ومن أهم كتبه (تبصرة الأدلة)، ويعد من أهم المراجع في معرفة عقيدة الماتريدية بعد كتاب (التوحيد) للماتريدي، بل هو أوسع مرجع في عقيدة الماتريدية على الإطلاق، وقد اختصره في كتابه (التمهيد)، وله أيضاً كتاب (بحر الكلام)، وهو من الكتب المختصرة التي تناول فيها أهم القضايا الكلامية،توفي في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة ثمانٍ وخمسمائة، وله سبعون سنة " جم الدين عمر النسفي (٤٦٢-٥٣٧هـ): هو أبو حفص نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل ... بن لقمان الحنفي النسفي السمرقندي، وله ألقاب عدة أشهرها: نجم الدين، ولد في نسف سنة إحدى أو اثنتين وستين وأربعمائة، كان من المكثرين من الشيوخ، فقد بلغ عدد شيوخه خمسمائة رجلاً ومن أشهرهم: أبو اليسر البزدوي، وعبد الله بن علي بن عيسى النسفي. وأخذ عنه خلقٌ كثير، وله مؤلفات بلغت المائة، منها: (مجمع العلوم)، (التيسير في تفسير القرآن)، (النجاح

في شرح كتاب أخبار الصحاح في شرح البخاري) وكتاب العقائد المشهورة بـ(العقائد النسفية) ، والذي يعد من أهم المتون في العقيدة الماتريدية وهو عبارة عن مختصر (لتبصرة الأدلة) لأبي المعين النسفي .

مرحلة التوسع والانتشار: (٧٠٠-١٣٠٠هـ):

وتعد من أهم مراحل الماتريدية ؛حيث بلغت أوجَ توسعها وانتشارها في هذه المرحلة؛ وما ذلك إلا لمناصرة سلاطين الدولة العثمانية، فكان سلطان الماتريدية يتسع حسب اتساع سلطان الدولة العثمانية، فانتشرت في: شرق الأرض وغربها، وبرز فيها أمثال: الكمال بن الهمام صاحب (المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة)، وفي هذا الدور كثر تأليف الكتب الكلامية من: المتون، والشروح، والشروح على الشروح، والحواشي على الشروح، وهناك مدراس مازالت تتبنى الدعوة للماتريدية وتتمثل في:مدرسة ديوبند و الندوية (١٢٨٣هـ) مدرسة البريلوي (١٢٧٢هـ) مدرسة الكوثري (١٢٩٦هـ

انتشار الماتريدية :

انتشرت الماتريدية في بقاع الأرض شرقها، وغربها لأسباب أهمها ما يلي:

١- السبب الرئيس، بل أهم الأسباب، اعتناق الملوك والسلاطين للمذهب الحنفي، فبسبب ذلك انتشر المذهب الحنفي في شرق الأرض وغربها، وبانتشار الحنفية ونفوذ سلطانهم انتشرت الماتريدية، لأن الماتريدية كانوا يمثلون المذهب الحنفي.

٢- من المعروف في التاريخ عبر القرون أن أية دولة إذا كانت تميل إلى فرقة ما، تسهل وتوفر لعلمائها مناصب القضاء، والإفتاء، والرئاسة، والخطابة، والتأليف، والتدريس؛ فيجدون أسبابا كثيرة وطرقا ميسورة لبسط سلطانهم على القلوب والأبدان، ونفوذ تأثيرهم على الشعوب والأوطان، وتشجعهم الدولة أيضا بإنشاء المدارس والجوامع، وبذلك تنشر أفكارهم ويزداد نشاطهم.

٣- مدارس الماتريدية ، ولنشاطهم الدراسي والتدريسي دور عظيم في نشر عقيدتهم، على سبيل المثال نذكر مدرسة ديوبند، فإنها أكبر مدرسة للماتريدية في القارة الهندية ،ودورها في نشر العقيدة

الماتريدية، وغيرها من المدارس فكانت هذه المدارس حقولا ومزارع لغرس البذور الماتريدية، وتربيتهم ، ثم تخرجهم وانتشارهم في بقاع الأرض، حيث يواصلون مساعيهم لنشر ما تعلموه وما رسخ في أذهانهم من العقيدة الماتريدية .

٤-نشاط الماتريدية في ميدان التأليف، للماتريدية نشاط بالغ وسعي متواصل في ميدان التصنيف في علم الكلام، وانتشرت هذه الكتب في مشارق الأرض ومغاربها ،وبانتشارها ودرسها وتدريسها انتشرت العقيدة الماتريدية وبسطت سلطانها على قلوب المشائخ والطلاب .

الفرد والمجتمع :

الفرد :

هو نواة المجتمع [١]،وهو مصدر قوته، واليد العاملة فيه ،فإذا كان المجتمع هو الذي يضع الأهداف العامة والمهام المتوقعة من كل فرد ،فإن الفرد هو من يقوم بفعل التنفيذ ،وهو من يؤدي الأدوار المطلوبة منه ،ويشارك في تحقيق الأهداف التي رسمها المجتمع له ،وفقا لمعايير الأداء المتوقع منه، بصرف النظر عن غرائزه، التي تميل إلى الأنانية وحب الذات والرغبات الشخصية، وحينها يوصف الفرد بأنه ملتزم أخلاقيا ،أما إذا صدر عدم التزام منه ،فهذا يعنى مخالفته للإطار العام الذي رسمه المجتمع له، ومخالفا للقواعد الموضوعة له، وهنا يوصف بالإهمال لأنه لم يؤدي دوره الاجتماعي المطلوب منه .(٢)

المجتمع :

يُعرف المجتمع (٣)بأنّه :نسيج اجتماعي من صُنع الإنسان، ويتكوّن من مجموعة من النّظم والقوانين ،التي تُحدّد المعايير الاجتماعية التي تترتّب على أفراد هذا المجتمع، بالإضافة إلى ذلك، يَعتمد المجتمع على أفراده ليبقى متماسكاً، فمن دون الأفراد تنهار المجتمعات وتنعدم، وكذلك المجتمع هام

---

١ – الشخصية من منظور علم الاجتماع / د.السيد على شتا/ ص ٢٤ بتصرف/ ط المكتبة المصرية/ ط١ / ٢٠١٠م.

٢ – الفرد والمصير / د.علاء جواد كاظم / دار التنوير / ط ٢٠١١ بتصرف .

٣ – المدخل إلى علم الاجتماع / د.محمد الجوهري/ ص ٣٢/ ط الدار الدولية للاستثمارات الثقافية/ القاهرة/ ط١/ ٢٠٠٨م

جدا بالنسبة للأفراد حيث يُعتبر التواصل بين الأفراد في النّسيج الاجتماعي من أهمّ العوامل المؤثّرة على الصّحة النّفسيّة، فمن دون مجتمع وعلاقات اجتماعيّة ينهار الإنسان جسديّاً ومعنويّاً، حيث يبدأ الإنسان منذ صغره عادةً بتكوين علاقات اجتماعيّة أوّلها مع أمّه، ثمّ أسرته والمجتمع، ويرتبط بقاء الإنسان على قيد الحياة بقدرته على التعايش الاجتماعي .[1]ويتأثر الفرد بالمجتمع، كما يتأثّر المجتمع بالفرد، فعلى سبيل المثال ،إذا كان المجتمع يعاني من تفشّي ظاهرة البطالة، وارتفاع مستوى الجريمة، واكتظاظ الطلبة في المدارس، فسوف يتأثّر أفراد هذا المجتمع سلباً نتيجةً لهذه العوامل.

وهناك عناصر أساسية هي التي تُشكّل المجتمعات، ومنها ما يأتي: العادات والقيم، الدور المترتب على الأفراد، منظومة القوانين، الأهداف المجتمعيّة، الرغبات، والطموحات، والتوقّعات وغيرها

[1] – الفرد والمصير / د.علاء جواد كاظم / دار التنوير / ط ٢٠١١ بتصرف .

المبحث الثاني

تاصيل العقل والنقل عند الماتريدي

يسلك الماتريدية في بحث قضايا العقيدة، منهجا وسطا ،بين إفراط الحشوية وغيرهم من الحرفيين، وبين تفريط المعتزلة ومن سار على نهجهم في الركون إلى العقل والاعتماد عليه تماما ،فهم جمعوا بين دلالتي العقل والنقل ،وفي ذلك يقول الإمام محمد أبو زهرة :" ... ولذلك تقرر أن منهاج الماتريدية يرى أن للعقل سلطانا كبيرا من غير شطط ولا إسراف، والأشاعرة يتقيدون بالنقل، ويؤيدونه بالعقل ،حتى أنه يكاد يقرر الباحث أن الأشاعرة في خط بين الاعتزال وأهل الفقه والحديث، والماتريدية في خط بين المعتزلة والأشاعرة ،فإذا كان الميدان الذي تسير فيه هذه الفرق الأربع، والتي لا خلاف بين جميع المسلمين في أنها جميعا من أهل الإيمان، ذات أقسام أربعة، فعلى طرف منه يقف المعتزلة، وعلى الطرف الآخر أهل الحديث ،وفي الربع الذي يلي المعتزلة الماتريدية، وفي الربع الذي يلي المحدثين الأشاعرة "(١).

فالماتريدية يعتمدون على العقل والنقل معا ،إلا أن اعتمادهم الأكبر منصب على الأدلة العقلية، فأبو منصور وكل من تبعه يعتمدون في الأساس على دلالة العقل ،ولكن لما كان العقل عرضة للخطأ والزلل ، كان للأدلة النقلية دور بجوار أدلة العقل ،وهو حماية العقل من الزلل والشطط فيما لا يقدر عليه وحده ، فالعقل البشري المحدود، عاجز عن إدراك الحكم الإلهية وحده، فلابد من وجود مرشد هاد، وهو النقل الذي يجبر كسر العقول ،ومن استغنى بعقله عن النقل فقد ظلمه وحمله ما لا يحتمل(٢).

١- تاريخ المذاهب الإسلامية/ محمد أبو زهرة ص ١٦٨،١٦٧/ ط دار الفكر العربي.

٢- أطال أبو منصور في شرح وجه الحاجة إلى الرسل وعدم كفاية العقل ،وهذه دلالة واضحة على مكانة النص وتقدم مرتبته عند الماتريدية، وفي ذلك خير رد على من أدعى أن الماتريدية أقرب ما يكون إلى المعتزلة " التوحيد/ أبو منصور الماتريدي/ تحقيق د فتح الله خليف/ ط دار الجامعات المصرية/ مصر.

وهكذا فالماتريدية يعطون مساحة أكبر للعقل ،وبل ويعتمدون عليه كمنهج أول للوصول إلى الحق، ولعل السبب في هذا المنهج يرجع إلى أمرين :

١-البيئة التي ظهرت فيها الماتريدية ،فقد نشأ مؤسسها في بلاد ما وراء النهر ،الملاصقة لبلاد فارس وخراسان ، والتي كانت تعج بكافة التيارات الفكرية ،فقد خالطوا الثنوية (١)،بكل طوائفهم

---

١ -الثنوية هم أصحاب الاثنين الأزليين ،الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان ،بخلاف المجوس القائلين بحدوث الظلام، والثنوية تقول بتساوي الظلمة والنور في القدم ،واختلافهما في الجوهر والفعل ،والنور عندهم فاعل للخير، والظلمة تفعل الشر، ومن طوائفهم :المانوية ،المزدكية ،الديصانية ،التناسخية ،المرقونية . الفرق بين الفرق / عبدالقاهر بن طاهر البغدادي الاسفراييني/ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد/ ص ٢٨٧/ المكتبة العصرية

من مانوية (١)وديصانية (٢)ومزدكية (٣)كما ناظروا المشبهة (٤)والحشوية (٥)والمعتزلة وسائر المخالفين، كل هذا أثر على منهجهم ،فتأثروا بمن يناظرونهم ،فسلكوا منهجا أقرب إلى العقل منه إلى النص "(٦)

.

---

١ – المانوية :أصحاب ماني بن فاتك ،الحكيم الذي ظهر في زمن سابور بن أردشير ،وقتله بهرام بن هرمز ،وذلك بعد عيسى بن مريم عليهما السلام ،أحدث دينا بين المجوسية والنصرانية ،وكان يقول بنبوة سيدنا عيسى عليه السلام ، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام .الملل والنحل/ الشهرستاني/ تعليق احمد فهمي محمد/ ص ٤٩/ ط دار الكتب العلمية / بيروت لبنان.

٢ – الديصانية :هم أصحاب ديصان ،أثبتوا أصلين :النور والظلام ،النور يفعل الخير قصداً واختيارا ،وهو حي عالم قادر مدرك حساس ،تكون معه الحياة ،وهو بياض كله ،أما الظلام فهو يفعل الشر طبعا واضطرارا ،وهو ميت عاجز جاهل، لا فعل له ،و هو سواد كله .راجع الملل والنحل/ الشهرستاني/ تعليق احمد فهمي محمد/ ج٢ ص ٥٥/ ط دار الكتب العلمية / بيروت لبنان.

٣ – المزدكية :هم أصحاب مزدك ،الذي ظهر أيام قباذ والد أنوشروان الذي أجابه لمذهبه ،ولكن أنوشروان قتله لخزيه وفساده، وكان يقول بالاصلين :النور والظلمة ،النور يفعل بالقصد والاختيار ،والظلمة تفعل اتفاقا ،وقال بشركة كل الناس في النساء والأموال للقضاء على الخلاف والمباغضة ،أحل لأتباعه قتل الأنفس للخلاص من الشر. المرجع السابق

٤ – المشبهة :هم المصرحون بالتشبيه ،كغلاة الشيعة ،ومضر وكهمس ،وأحمد الهجيمي من الحشوية الذين قالوا بأن الله جسم على صورة ذات أعضاء وأجازوا عليه الملامسة والمصافحة ،وقالوا بأن المؤمنين المخلصين يعانقونه في الآخرة، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا . الفرق بين الفرق / عبدالقاهر بن طاهر البغدادي الاسفراييني/ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد/ ص ٢٣٥/ المكتبة العصرية

٥ – الحشوية :هم طائفة من المتمسكين بظاهر النصوص ،سموا بذلك لأنهم كانوا ممن يحضرون مجلس الحسن البصري، فلما تكلموا بالسقط قال ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة ،أي مؤخرة الحلقة .راجع الملل والنحل ١/ ١٠٣.

٦ –العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلاتها/ د.محمد عبدالستارنصار/ ص ٢٣١/ ط٢/ ١٩٨٩/ ط دار الطباعة المحمدية / مصر

٢- أن الماتريدية يفرقون بين الإيمان بالعقائد والعلم بالعقائد ،فالإيمان أساسه أدلة القرآن الهادية المرشدة، أما العلم بالعقائد فأساسه العقل، فالنصوص هي ظواهر إرشادية يجب الإيمان بها مسبقا، ثم يكون العلم بها بالاستدلال عليها عقلا " (١).

وبالجملة فمنهج الماتريدية يقوم على الجمع بين العقل والنقل ،والأخذ في الاعتبار أيضا المعارف الحسية، وفيما يلي سنحاول إلقاء الضوء على ركائز المنهج الماتريدي تفصيلا ؛لنرى منزلة كل منهم عندهم .

أولاً : دلالة العقل ومنزلتها عند الماتريدية :-

اعتمد الماتريدية على دلالة العقل، واعتبروا أن المعرفة العقلية صادقة ،إذا تمت على شرطها ، فالمعارف العقلية تقوم على استنباط نتائج مجهولة من مقدمات معلومة، بتطبيق شروط الاستدلال والسير على قواعده، والمعرفة العقلية الصحيحة هي أساس صحة الحس والخبر، وصدقها يتم عن طريق المعرفة العقلية "(٢) .

وقد اعتبر النسفي العلوم الناتجة عن دلالات العقول على قمة العلوم ،يقول أبو المعين : "والعلم الحاصل عن النظر في الدلائل وإن كان يبلغ النهاية في القوة فطريقه أخفى من طريق علم الحواس والبداهة " (٣).

وتقديرا لدلالة العقل عند الماتريدية ،فإنهم يرون وجوب المعرفة العقلية و وجوب النظر ، معتمدين على أدلة القرآن والسنة الداعية إلى التفكر والاعتبار ، فالإمام أبو حنيفة يرى أن أول الواجبات على المكلف هو النظر العقلي ،وهذا النظر العقلي هو أساس الإيمان ،فالنظر مؤدي إلى معرفة

---

١ - تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٧٨ .

٢ - الفرق الكلامية الإسلامية/ علي عبدالفتاح المغربي / ص ٣٧٠/ ط٢/ ط مكتبة وهبة/ ١٩٩٥/ مصر .

٣ -تبصرة الأدلة/ أبو المعين النسفي / تحقيق د.السيد محمد الأنور عيسى/ ص ١/ ١٣٨/ ط المكتبة الأزهرية / ط١/ ٢٠١٠م.

الله وصفاته والإيمان به ،ثم الانتقال إلى معرفة الرسل والإيمان بهم والتصديق بكل ما أخبروا به من السمعيات (١).

ويؤكد على هذا المعنى أبو منصور فيقول :بوجوب النظر العقلي وامتناع التقليد ،ويبين أن التقليد لا ينظر إليه، إلا إذا عاد إلى حجة عقلية ، يقول الماتريدي :" فثبت أن التقليد ليس مما يعذر صاحبه، لإصابة مثله ضده ،على أنه ليس فيه سوى كثرة العدد ،اللهم إلا أن يكون لأحد ممن ينتهي إليه القول، حجة عقل يعلم بها صدقه فيما يدعي " (٢)كما يبين الماتريدي أن دلالة العقول ،من الأصول التي يقوم عليها الدين قائلا :" ثم اصل ما يعرف به الدين ٠٠٠٠٠وجهان :أحدهما السمع والآخر العقل "،وبجانب العقل ، يضيف الماتريدي مصدرا آخر وهو الحواس الظاهرة ،وهي طريق للمعارف العقلية وآلة لها، فيقول" ٠٠٠ثم السبيل التي يتوصل بها إلى العلم بحقائق الأشياء، العيان والأخبار والنظر ،ويقصد بالعيان ما تقع عليه الحواس " (٣).

وقد تبنى أبو المعين النسفي نفس الفكرة ،فحصر مصادر العلوم والمعارف في هذه الثلاثة ، فقال :"إذا ثبتت الحقائق والعلوم فنقول :إن أسباب العلم وطرقه ثلاثة :أحدها الحواس السليمة ٠٠٠٠الثاني خبر الصادق٠٠٠والثالث العقل " (٤).

ثم توسع النسفي في الكلام على دلالة العقول ، وبين أنها أهم الطرق الموصلة للعلم ،ومن نازع في ذلك، فهو مقلد مصر على تقليده ،أو معاند مصر على عناده " (٥).

---

١ – إشارات المرام من عبارات الإمام أبي حنيفة النعمان/ كمال الدين أحمد بن حسن البسنوي/ تحقيق أحمد فريد المزيدي/ ص ٧٥/ ط دار الكتب العلمية/ ط١/ بيروت/ ٢٠٠٧م

٢ – التوحيد ص ٢/ ٧.

٣ – التوحيد ص ١/ ٢/ ٧ .

٤ – تبصرة الأدلة ١٤٢

٥– السابق ص ١٤٤ .

ودليل الحصر في هذه الثلاثة :أن العلم الحاصل للإنسان بسبب ،إما أن يكون من نفسه أو لا، فإن كان من نفسه فإما أن يكون من أسباب ظاهرة أو باطنة ،فإن كان من نفسه بأسباب ظاهرة فهو الحواس، أو باطنة فهو العقل ،أو غيره فهو الخبر "(١).

ويأتي البياضي فيقرر أن أول الواجبات هو النظر العقلي ،ويدعم رأيه هذا بالعبارة المنقولة عن أبي حنيفة، القائل فيها :" ولا عذر لأحد في الجهل بخالقه لما يرىٰ من خلق السماوات والأرض، وخلق نفسه وغيره، ويؤيد هذا قوله تعالىٰ (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض) سورة إبراهيم آية ١٠ ،وقوله تعالىٰ (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) سورة الزمر آية ٣٨، وحيث كانت سائر الواجبات متوقفة علىٰ النظر العقلي؛ ثبت أنه أول الواجبات علىٰ المكلف "(٢).

من خلال ما سبق ندرك أن ،دلالة العقول هي الركيزة الأولىٰ لمنهج الماتريدية ،ومن ثم كان النظر العقلي واجبا؛ باعتباره موصلا إلىٰ معرفة الله والإيمان به ،وقد يظن الظان أن الماتريدية بذلك يقتربون من المعتزلة ،ويبتعدون عن الأشاعرة ،ولكن شائبة الاعتزال التي تلاحق الماتريدية يمكننا دفعها بما يلي :

١- أنهم أوجبوا المعرفة العقلية بارشاد من الأدلة السمعية ،فالنظر العقلي ما كان واجبا إلا بناء علىٰ نصوص القرآن والسنة ،بل إن متكلمي سلف الأمة منذ أن تكلموا في هذه المسائل مع الخصوم، وأثبتوا دلائلها في تصانيفهم لم يزيدوا علىٰ ما في القرآن والسنة من الإشارات إلىٰ ذلك ،بل لم يستخرجوا من نصوصها عشر ما فيها من درر الحجج ،والآيات والأحاديث الدالة علىٰ ذلك أكثر من أن تحصىٰ "(٣).

١- إشارات المرام من عبارات الإمام أبي حنيفة النعمان/ كمال الدين أحمد بن حسن البسنوي/ / تحقيق أحمد فريد المزيدي/ ط دار الكتب العلمية/ ط١/ بيروت/ ٢٠٠٧م.

٢- السابق ص ٨٤ .

٣- السابق ص ٤٧ .

٢- أن وجوب المعرفة العقلية على المكلفين ،بحسب استعدادهم ،وعلى ما يليق بحال كل مكلف، ولم يوجبوا المعرفة التفصيلية على كل المكلفين كما فعلت المعتزلة .

٣- أن حصول المعرفة بعد النظر الصحيح يسير على أصل شرعي ،فقد علم من أصول الشرع، أن الله جرت حكمته بخلق العلم عقب النظر عادة ،وليس لازما كما قالت الفلاسفة ،أو متولدا عنه كما قالت المعتزلة (١).

٤- أن الماتريدية حينما يقررون دلالة العقول ،لا يقصدون أن العقل هو الموجب للمعرفة ،بل هو مجرد آلة للمعرفة، والموجب في الحقيقة هو الله تعالى ٢ .

وبهذا يتضح لنا ، أن الماتريدية في اعتمادهم على العقل ،لا يستغنون عن الشرع ،فالمعرفة العقلية مصدر من مصادر المعرفة ،لكن لا تستغني عن توجيه الشرع وإرشاده ،وبهذا يتأكد لدينا ، ما قرره العلماء، من أن منهج الماتريدية وسط بين عقلانية المعتزلة وبين نصية الأشاعرة، فهم يتميزون عن المعتزلة، بإثبات دور أولي للنقل في المعرفة، ويتميزون عن الأشاعرة بإفساح مساحة اكبر للعقل، فالعقل والنقل عندهم في مرتبة واحدة، فكلاهما مصدر لتحصيل المعارف ،النقل مرشد ومؤصل، والعقل في ضوئه مستدل ،ويعبر عن هذا الاتجاه الإمام محمد عبده فيقول:" والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد ،والعقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه ، وما وراء ذلك فنزعات شياطين وشهوات سلاطين ،والقرآن شاهد على كل بعمله، قاض عليه في صوابه وخطئه "(٣).

ويستتبع الاعتماد على العقل عند الماتريدية ،نبذ التقليد ؛إذ ليس فيه حجة سوى كثرة العدد، وكثرة العدد لا تنهض دليلا على صحة الاعتقاد ،والتقليد لا يعتد به إلا إذا انتهى إلى حجة يعلم بها

---

١ - السابق ص ٨٤ ،وراجع كذلك السيف المشهور في شرح عقيدة أبي منصور ص ٣٢ .

٢ - شرح الفقه الأكبر / أبو حنيفة النعمان/ شرح أبو منصور الماتريدي/ ص ١٣٧ / ط دار البصائر / ط١/ ٢٠٠٩م/ مصر .

٣ - رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ٢١ .

صدقه فيما يدعي ،وهذا القول يشابه مذهب المعتزلة ،إلا أن الماتريدية يعودون فيحكمون بصحة إيمان المقلد مع عصيانه بترك النظر ،إن كان أهلا له ،والتقليد عندهم من القادر على النظر مما يناقض كمال الإيمان لا صحته .(١)

تقسيم الأدلة العقلية :

يقسم الماتريدية دلالة العقول إلى قسمين :

١- ضرورية :وهي التي لا تحتاج إلى نظر واستدلال ،كقولنا :الواحد نصف الاثنين، فهذه العلوم تحصل بأول توجه ، ولا يتصور فيها مخالفة من ذوي العقول السليمة .

٢- أدلة كسبية :وهي ما كانت حاصلة بالكسب ،ومباشرة الأسباب، والنظر في المقدمات ،كقولنا :العالم حادث ،وكل حادث له محدث .(٢)

الإلهام ودلالته عند الماتريدية :

الأدلة الضرورية العقلية عند الماتريدية ،تشبه مصدر آخر للعلوم ،وهو الإلهام ، والإلهام هو: الإلقاء في القلب من غير كسب ،فالمعارف الإلهامية ،معارف مباشرة لا تتوقف على نظر في مقدمات، فهي تشبه الضروريات ،ولهذا يستدعي الكلام عن موقف الماتريدية من دلالة الإلهام السؤال الآتي : هل الإلهام من ملحقات المنهج العقلي عندهم أم أنهم يرفضونه ؟

وللجواب عن هذا ،نعود مباشرة إلى مؤلفات الماتريدية أنفسهم ؛لنرى بجلاء أنهم يرفضون دلالة الإلهام، ويقررون أن الإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق ،وحجتهم في ذلك: أن المنهج الفكري يشترط فيه أن يكون عاما مطردا صالحا لكل الناس ،وهذا لا يتحقق في دلالة الإلهام، فالإلهام ليس سببا يحصل به العلم لعامة الخلق ،وإن كان الإلهام يحصل به العلم في حق بعض

---

١ - كتاب التوحيد ص ٣ ،وكذلك الصحائف الإلهية/ شمس الدين السمرقندي/ تحقيق د.أحمد عبدالرحمن الشريف/ ص ٤٦٣/ الرياض.

٢- شرح العقائد النسفية/ أبو المعين النسفي/ شرح التفتازاني/ تحقيق عبدالسلام بن عبدالهادي شنار/ ص ١/ ٦٤/ ط دار الدقاق/ ط١/ ٢٠٠٧م/ سوريا .

الناس ،وقد ورد الخبر عن ثبوت الإلهام لرسولنا صلى الله عليه وسلم ،وحكى عن ذلك الكثير من السلف ،وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن في كل أمة محدثون .(١)

ثانيا :دلالة الحس :

من مناهج الاستدلال عند الماتريدية ، الاعتماد على مدركات الحواس الظاهرة ،وهي البصر والسمع والشم واللمس والتذوق ،ولا يدخل في المعارف الحسية مدركات الحواس الباطنة التي يثبتها الفلاسفة ؛لأنها لا تتم دلائلها على الأصول الإسلامية ،والحواس الظاهرة يحصل عنها العلم بالمحسوسات، وهذا لا يحتاج إلى دليل (٢).

وقيمة المعرفة الحسية عند الماتريدية تظهر من خلال أمرين :

١- أنها أصل المعارف العقلية وطريقها ، فالعقل يدرك الأشياء عن طريق الحواس الظاهرة ، وعلى هذا فالعلوم الحسية تتقدم العلوم النظرية لأنها أساسها وطريقها .

٢- أن القرآن نص على المعارف الحسية ،وجعلها من دلائل العقائد ،فملاحظة التغيرات الكونية تنبني على الحس الظاهر ،وهو يؤدي إلى معرفة وجوده تعالى ،وكذلك ملاحظة الإبداع الكوني المدرك بالحس ،من أدلة كونه تعالى عالما مريدا ،وأيضا ندرك بحواسنا جريان الخلق على سنن ثابتة، ومسلك واحد ،وهذا يفضي إلى العلم بكونه تعالى واحدا ،يقول الماتريدي :" وأما دلالة الاستدلال بالخلق فهو أنه لو كان أكثر من واحد لتقلب فيهم التدبير نحو :تحول الأزمنة من الشتاء والصيف ٠٠٠٠٠ فإذن دار كله على مسلك واحد و نوع من التدبير ،ولا يتم هذا بمدبرين لذلك لزم القول بالواحد "(٣).

فاعتماد الماتريدية على الحواس كجزء من منهجهم العقدي ،واضح ،وذلك من خلال كتب أئمتهم، وأساسه آيات القرآن الآمرة بالنظر والاعتبار ، وتأكيدا لصحة الاعتماد على هذا الأصل،

١- السابق ١/ ٦٨ .

٢ - السابق ١/ ٤٧،و كذلك راجع أصول الدين لإبي اليسرللبزدوي /تحقيق هانز بيترلينس/ص ٢١/ط الازهرية/ مصر

٣- راجع التوحيد ص ٢١ .

وقف أبو المعين النسفي مدافعا عن دلالة الحس ،رادا عنها شبهات المشككين ،مثل شبهة معارف الحواس متناقضة، فيقرر أن من شك في معارف الحواس اعتمادا على كونها متناقضة، مثل، الممرور الذي يجد العسل مرأ، والأحول يرى الواحد اثنين ،وما تناقضت قضاياه لا يصلح كونه أصلا لتحصيل المعارف .

يقول النسفي هذه الشبهة تبين تناقضهم ،وانهم يهدمون مذهبهم بأنفسهم ؛إذ أن قولهم هذا يدل على أنهم يعلمون الحقائق غير أنهم معاندون ،فإنهم لو لم يعرفوا الحواس ما هي ،وأن قضاياها متناقضة، والمتناقض لا يصلح أصلا للمعرفة، ومعرفتهم بكل هذا دليل على إثباتهم لمدركات الحواس غير أنهم يكابرون، ولكن الاعتماد على دلالة الحس مشروط بسلامتها واندفاع الآفات عنها "(١).

ومن قبل النسفي ،جعل الماتريدي منكري الحواس منحطين عن البهائم رتبة فقال : "٠٠٠فمن قال بضده من الجهل ،فهو الذي يسمى منكره كل سامع مكابرا تأبى طبيعة البهائم أن يكون ذلك رتبتها ٠٠٠٠وأجمعوا على ألا يناظر من كان ذلك قوله " (٢).

ثالثاَ :الأدلة النقلية

من أصول المنهج الماتريدي ،الاعتماد على النقل ،وقد اعتمد أئمتهم على هذا الأصل ،بل وجعلوه على قمة مصادر المعرفة ،لأن النص أصل الدين ،والدين ضروري للناس جميعا ؛إذ لابد أن يكون لهم دين يلزمهم الاجتماع عليه وأصل يلزمهم الفزع إليه " (٣).

وعلى نفس المعنى يؤكد السعد في شرحه على النسفية ،والخيالي في حاشيته على شرح السعد ، فيثبت كلاهما الخبر كدليل ومصدر للمعارف ،ويزيد هذا المعنى تأكيدا البياضي ،فيشيد بأهل السنة لسلامة منهجهم القائم على الأدلة النقلية ، وينعي على غيرهم اتباعهم نزغات العقول (٤).

---

١ – تبصرة الأدلة ص ١/ ١٣٩ ،وراجع كذلك السيف المشهور ص ٥ .

٢ – التوحيد ص ٧ ،الصحائف الإلهية للسمرقندي ص ٧ وما بعدها .

٣ – التوحيد ص ٤ .

٤ – العقائد النسفية ١/ ٦٠ ،وكذلك إشارات المرام ص ٥٢ .

وفي النهاية ، نرى الملا على القارئ يصرح بتقديم السمع على العقل تصريحا قاطعا فيقول :"ثم العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع الذي هو الأصل ،وإن كانت مما يستقل به العقل "(١).

كل هذه النصوص ،أن أخذناها وحدها بعيدا عن نصوصهم الأخرى ،التي تصرح بتقديم العقل، حكمنا بأن الماتريدية شعبة اشعرية في بلاد ما وراء النهر ،ولكننا نجد نصوصا أخرى لهم ترفع قدر العقل، بل وتقدمه على النقل ،ومنها مثلا :

١- يقف الماتريدي مدافعا عن النظر العقلي، ويرد دعوى القائلين بأن ترك النظر العقلي أسلم، لأنه يؤدي إلى العطب والشبهة ،وإلى اشتباه خاطر الرحمن بخاطر الشيطان ،ويرد الماتريدي هذا الزعم مبينا قيمة العقل ،إذ به تعرف المحاسن والمساوئ والتمييز بينهما ،وبه يعلم فضل الإنسان على سائر الحيوان، وبه يقع تدبير الممالك وسياسة الأمور ،ومن ادعى ترك النظر فإن الذي سول له ذلك، هو خاطر الشيطان، الذي منعه من النظر ؛ليصده عن جني ثمار التعقل ،من الوصول إلى معرفة الخالق، فالدعوة إلى ترك النظر ،إنما هي من صنيع الشيطان ،فالضرورة باعثة على النظر ،دافعة إلى الفكر فيما يرى الإنسان من أحواله ومنافعه ومضاره، التي في الجهل بها عطبه ،وفي العلم بها صلاحه ومعرفته بخالقه.(٢)

ويتابع الماتريدي في هذا المنزع العقلي ،غير واحد من أئمة الماتريدية ،كابن أبي شريف ،الذي يصرح بتقديم العقل على النقل لنفس السبب الذي دعا المعتزلة إلى هذا التقديم ،وهو أن الشرع لا يثبت إلا بالعقل، فيقول:" إن الشرع إنما ثبت بالعقل ،فإن ثبوته يتوقف على دلالة المعجزة على صدق المبلغ، وإنما تثبت هذه الدلالة بالعقل ،فلو أتي الشرع بما يكذبه العقل و هو شاهده لبطل الشرع والعقل معا"(٣).

١- الفقه الأكبر ص ١٧ .

٢- التوحيد ص ١٣٥ .

٣- المسامرة في شرح المسايرة/ الكمال بن أبي شريف بن الهمام/ شرح قاسم بن قطلوبغا الحنفي/ ص ٤٤/ ط المكتبة الأزهرية/ مصر

ويؤكد ابن الألوسي هذا المعنى ، فيقرر أن العقل حجة من حجج الله تعالى ،ويجب الاستدلال به قبل مجيء الشرع، وإرسال الرسل وإنزال الكتب تتمة للدين ببيان ما لا تهتدي العقول إليه "[1].

وقد أخذ معظم شراح النسفية على عاتقهم تعظيم دلالة العقول؛ لكونها أساس علم التوحيد، وهو أساس الكتاب والسنة، يقول أحمد في حاشيته على الخيالي :"ويراد بتلك القواعد المسالك الأصولية، إذ لابد منها في استنباط الأحكام مطلقا من الكتاب والسنة ،وعلم الكلام أساس لتلك المسائل "،ويؤكد على نفس المعنى السيالكوتي في حاشيته على الخيالي.[2]

فهذان موقفان متقابلان لدى الماتريدية ،فهل نعد هذا انقساما في بنية المذهب الماتريدي حول موقف العقل من النقل وأيهما يقدم ؟

والحق ان البحث في كتب الماتريدية يظهر أن هذا ليس انقساما في مذهبهم ،والاختلاف السابق يرجع إلى اختلاف الجهة التي ترد عليها نصوص كلا من الفريقين ،ولبيان ذلك أقول :تنقسم الأحكام الشرعية عند الماتريدية إلى:

١- أحكام عملية :وهي الفروع الفقهية ،وهذه لا تثبت إلا بالسمع .

٢- أحكام اعتقادية :وأكثرها ثابت بالعقل ،ومنها ما لا يثبت إلا بالسمع ،كالرؤية والأخرويات؛ ولذا انقسمت العقائد إلى سمعيات وعقليات .

وإذا وضح هذا التقسيم نقول : إن الماتريدية يقدمون الشرع فيما لا يستقل العقل بإثباته ،أما ما يستقل به العقل، فهو يهتدي إليه بإرشاد شرعي ،فتقديم العقل هنا ،ليس تقليلا من شأن النص، ولكنه لخدمة النص ؛إذ إن ثبوت الشرع يتوقف على العقل من جهة توقفه على النظر في المعجزة ،ولا يكون ذلك إلا عقلا تفاديا للزوم الدور .(٣)

---

[1] – الماتريدية دراسة وتقويما/ د.أحمد الحربي/ ص ١٤٢/ ط دار العاصمة / الرياض / السعودية

[2] – حاشية أحمد على الخيالي ٣/ ٢٠ (ضمن مجموعة الحواشي البهية) وحاشية السيالكوتي على الخيالي ٢/ ٦٣ .

[3] – شرح المسامرة ص ٤٤ .

ولا ننكر هنا اقتراب الماتريدية كثيرا من المعتزلة في النزعة العقلية ،ولكننا ننكر دعوى خروج الماتريدية عن جماعة أهل السنة ،فإن مذهبهم وأن كان يعطي مساحة أكثر للتعقل إلا أنه يبقى وسطا بين الأشاعرة والمعتزلة .

موقف الماتريدية من خبر الاحاد :

تبين مما سبق ان الماتريدية يعتمدون على دلالة النقل ،أو كما يسمونها (الأخبار)والسؤال الآن: هل الأخبار كلها عندهم على السوية ؟أم أنهم يميزون بينها ؟وهل كل الأخبار معتبرة عندهم في باب العقائد؟

في الواقع يميز الماتريدية بين نوعين من الأخبار :

١- الأخبار المفيدة للقطع، وهي أدلة القرآن والسنة المتواترة، والمتواتر هو الخبر المسموع من أشخاص مختلفة في أزمان مختلفة بحيث لا يتوهم أنهم توافقوا على الكذب، والتواتر يعطي معنى الاتصال، تقول : تواترت الكتب إذا اتصلت بعضها ببعض في الورود متتابعا، وهو موجب للعلم اليقيني.

ولا يقدح في دلالة المتواتر على اليقين جواز الكذب على كل واحد من رواته منفردا ؛لأنه ربما يكون للخبر مع اجتماع الرواة ما يجعله مفيدا لليقين بخلاف انفرادهم.(١)

وقد وقف النسفي كعادته مدافعا عن يقينية الخبر المتواتر مبينا أن من يرده متناقضا مع نفسه، فالقول بان الخبر ليس من وسائل المعرفة ،خبر ،وقد أقروا ببطلان الخبر ،فكان هذا إقرارا منهم ببطلان مقالتهم، وقد ألحق النسفي بالمتواتر ما تأيد بالبرهان المعجزي أو قول الرسول المؤيد بالمعجزة، وهذا النوع يشابه الضروريات والمتواترات في اليقين وعدم الزوال بتشكيك المشكك.(٢)

٢- الخبر المفيد للظن (خبر الواحد) وهو ما نزل رواته عن حد التواتر مما لا سبيل إلى العلم بصدقه أو كذبه سواء نقله واحد ام جمع .

وخبر الواحد اختلفت المذاهب في حجيته في العقائد

---

١ - شرح العقائد النسفية ١/ ٥٢.

٢ - التبصرة ١٤٢.

فذهب أكثر العلماء إلى كونه حجة لكن بشرط اقتران قرائن مقوية له مثل :

- تلقي الأمة له بالقبول ،يقول ابن ابي العز الحنفي :" خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول عملا به وتصديقا له ،يفيد العلم اليقيني " (١).
- الإجماع على العمل بمقتضاه ،فلو أجمعت الأمة على العمل بخبر ما دل إجماعهم على صدقه يقينا ؛لأن الله قد عصم أمة النبي صلى الله عليه وسلم أن تجتمع على ضلالة كما جاء في الحديث ٢.
- كونه مما تحتفي به القرائن: كذكره في الصحيحين ،أو في أحدهما ،أو كونه مرويا من طرق عدة، أو كونه منقولا بنقل الثقات .

هذه هي الأخبار الآحادية المفيدة للقطع، وأما ما سواها فيبقى على إفادة الظن فلا يؤخذ به في باب العقائد(٣).

رأي الماتريدية في دلالة خبر الواحد :

فيرى معظمهم أنه لا يفيد اليقين لــعروض الشبهة في كونه خبرا للرسول ، فلا يؤخذ به في العقائد (٤).

ويبدو أن الماتريدية يقصدون بخبر الواحد الذي لا تعتبر دلالته في العقائد عندهم ،الخبر المجرد عما يقويه ،أما إذا اقترن بما يقويه ،فهو معمول به ،وقد تقدم قبل قليل عبارة ابن أبي العز الحنفي الماتريدي القائل فيها :" خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول عملا به وتصديقا له يفيد العلم اليقيني".

بل إن شيخ المذهب علم الهدى ،يقرر دلالة خبر الواحد المستند إلى ما يقويه ،ببيان أن خبر الواحد لابد أن يقاس على أصل يقيني ،فإن ظفرنا له بأصل يقويه أخذنا به ،وإلا فلا ،كذلك يلزم لخبر

---

١ – شرح العقيدة الطحاوية/ شرح صالح بن عبدالعزيز/ ص ٣٩٣/ ط مؤسسة الرسالة

٢ – توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار/ محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني/ ص ١/ ١٢٥/ ط المكتبة السلفية/ المدينة المنورة .

٣ – السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي/ د.مصطفى السباعي / ص ١٩٠/ ط دار الوراق / مصر

٤ – شرح العقائد النسفية ص ١/ ٥٩ .

الواحد نظر آخر ،وهو نظر في حال الرواة ،فإن كانوا ثقات مجمع على إمامتهم ،فهو قطعي ،وإلا فهو ظني .(١)

وبهذا يتضح لنا، أن الماتريدية متفقون إلى حد كبير مع ما ذهب إليه جمهور العلماء ،من جواز العمل بخبر الواحد إذا اقترن به ما يقويه ،وهذا المذهب مبني على أحاديث دالة على قبول خبر الواحد والعمل به في أكثر من مناسبة، ومن ذلك :

١- عمل النبي صلى الله عليه وسلم شهادة الواحد في خبر ذي اليدين فإنه لم يقبله إلا بشهادة ابي بكر وعمر وهي شهادة آحاد "صحيح مسلم .

٢- توقف أبي بكر في خبر المغيرة ابن شعبة في ميراث الجدة ،ولم يقبله غلا بعد ما شهد له محمد بن مسلمة، وهو واحد " أبو داود .

٣- وبجانب هذه الأحاديث وغيرها أجمع الصحابة على قبول خبر الواحد والأخذ به ، وذلك في حالات كثيرة يتعذر حصرها .(٢)

إفادة الأدلة النقلية لليقين عند الماتريدية :

المشهور عند جمهور الأشاعرة ،أن الدليل النقلي يفيد اليقين ،ولم يخالف في ذلك إلا الرازي في كتـــــــابه "المعالم" إلا انه عدل عن قوله ،وقال بإفادة الدليل النقلي لليقين إذا اقترنت به قرائن حالية "(٣).

أما الماتريدية فقد أجمعوا على دلالته لليقين مطلقا إذا كان صحيحا ،يقول البياضي :"الدليل النقلي يفيد الاعتقاد واليقين في المعتقدات عند التوارد على معنى واحد بالعبارات والطرق المتعددة والقرائن المنضمات "(٤).

---

١ -التوحيد ص ٩.

٢ - الإبهاج بشرح المنهاج / السبكي / ص ٢/ ٢٤٠/ ط الكليات الأزهرية .

٣ - شرح المعالم/ ابن التلمساني / تحقيق د.عواد محمود/ ص ١٢٥/ ط الأزهرية/ ٢٠٠١/ مصر.

٤ - إشارات المرام ص ٤٦ .

وبهذا يسلم الدليل النقلي كأصل من أصول منهج الماتريدية ،بل هو مقدم على أدلة العقل عند بعضهم كما سبق بيانه، وبذلك تكتمل عناصر المنهج الماتريدي ،ولكن ليس العبرة فيما يعلن من قواعد منهجية، وإنما العبرة في تطبيق هذه القواعد على القضايا العقدية ،فإن الأصل في المنهج والمذهب أن لا ينفصلان، فهما وجهان لعملة واحدة، والمنهج هو القواعد النظرية ،والمذهب هو الجانب التطبيقي لهذه القواعد ،ومع ذلك قد نجد كثيرا ممن يضعون لأنفسهم مناهج ثم يخالفونها عند التطبيق، ولذلك سنعرض تفصيلا لتطبيق هذا المنهج على بعض القضايا العقدية عند الماتريدية في المبحث القادم لنرى مدى التزامهم بالمنهج الذي رسموه لأنفسهم .

المبحث الثالث

نماذج على تطبيق الوسطية العقدية

ونتحدث فيه عن بعض القضايا العقدية ،التي طبق فيها الماتريدية الوسطية ،من خلال اعتمادهم على العقل والنقل في اثباتها وتقريرها ،ومن هذه القضايا :

القضية الأولى: وجود الله تعالى :

النموذج الأول على وسطية الماتريدية العقدية، هو استخدامهم لكل من العقل والنقل في القضايا العقدية، هو نموذج إثبات وجود الله تعالى .

وقد ساهمت المدرسة الماتريدية في هذه القضية إسهاما كبيرا ،وقد جنحت الماتريدية إلى الابتكار أحيانا كثيرة بمنهج جامع بين النقل والعقل، متميز بطابع قرآني واضح في محتوى الأدلة ، وهذا ما جعلها تحتل مكانة مهمة بين المدارس الكلامية ، ولدى الفكر الإسلامي الحديث الذي يرى أن البرهنة على وجود الباري ينبغي أن تصدر من منابع رئيسية منها: الاستناد إلى إشارات القرآن الكريم واستدلالاته ،وإلى السنة النبوية المطهرة، ومرورا بالصالح من أدلة المتكلمين ،وأخذا بما في المكتشفات العلمية من حقائق تقود إلى الإيمان الجازم، وتفند شبه الملاحدة ومن شاكلهم .

ومن هذه الأدلة :-

١- دليل التغير

٢- دليل الأشياء الحية وغير الحية

٣- دليل الأحوال المتضادة

٤- دليل الجواهر والاعراض

٥- دليل العلية أو السببية

٦- دليل تناهي العالم

٧- دليل الحركة

٨- وجود الشر في العالم

٩- دليل العناية أو التسخير

١٠- دليل نظام العالم

١١- دليل الاختراع أو الخلق (١).

تفصيل الأدلة :دليل التغير :-

يعتبر هذا الدليل من أهم الأدلة على وجود الله تعالى ،وقد عرفه الفكر الإنساني في أشكال شتى وأساليب متنوعة، وأشار إليه القرآن الكريم في أكثر من آية (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لأيات لأولي الألباب)آل عمران ،آية ١٩٠ ،وهذا الدليل يستند إلى تغير العالم من حال إلى حال، والتغير لابد له من مغير ،فدل تغيره على وجود مغير له ،وهو الصانع .(٢)

وهكذا يتضح أن كل موجود في هذا العالم ،حقيقته قابلة للتغير ،والتحول من حال إلى حال ،يقول البياضي الحنفي: "يستحيل في العقل الإنساني قيام هذا العالم من السماوات والسيارات وسكون الأرض واختلافها في الكيفيات ،وما خص به الإنسان من الهيئات ،واستجماع أنواع الكمالات، وما يختص به سائر الموجودات ،وتغير أموره من تعاقب الضوء والظلمة ،وتغير أحوال الحيوانات والمعادن والنبات من غير صانع وحافظ يحفظه عن الاختلال "(٣) .

إن هذا التصوير الرائع لحقائق الكون المتغيرة ،التي تشهد بوجود الله تعالى ،كانت أساسا بنى عليه الماتريدي هذا الدليل ، وهو دليل في شكل قياس منطقي ،مؤلف من صغرى وكبرى ونتيجة، على النحو التالي :العالم متغير ،وكل متغير حادث ،فالعالم حادث .

لكن ما هي الدوافع ،التي دفعت بأبي منصور إلى اختيار مظاهر التغير في الكون وفي الإنسان، للتدليل على مبدأ الحدوث ،وبالتالي على وجود الباري سبحانه ؟ إن السر يكمن في أن هذه الحقائق،

١- أبو منصور حياته وآراؤه العقدية / د.بلقاسم الغالي/ ص ١٠٢ / ط٣/ ١٩٨٩/ ط دار التركي / تونس

٢- إشارات المرام / ص ٩٣.

٣- إشارات المرام / ص ٨٥.

مبنية على الإحساس والمشاهدة ومسلم بها عند أهل العلم ،ولا يمكن اعتماد حقائق ليست ثابتة ، ولاهي محل اتفاق بين أهل الفكر والنظر .

ثم إن لدليل الماتريدي طابعا قرآنيا لاشك فيه قال تعالى: (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) الكهف / آية ٣٧.

١- دليل الأشياء الحية وغير الحية:-

إن الماتريدي قد استعمل هذا الدليل ،وبرهن على حدوث الموجودات من خلاله ،فقال في كتابه التوحيد :"ليس لأحد من الأحياء أن يدعي لنفسه القدم ،بل لو قال ذلك لعرف الناس كذبه بالضرورة، خاصة أولئك الذين شاهدوه صغيرا ،أو حضروا ولادته ،وباء على ذلك لزم القول بحدوث الأحياء، ثم إن الأموات تحت تدبير الأحياء فهم لذلك أحق بالحدوث "(١).

إذن يمكن بناء هذا الدليل على النحو الآتي :الأحياء حادثة ،والأحياء تستعمل الأشياء غير الحية، فهذه الأشياء حادثة من باب أولى ،ويضيف الماتريدي :ثم إن هذه الموجودات تمتاز بخصائص تثبت لها صفة الحدوث ،منها أنها محتاجة إلى غيرها ،وعاجزة عن اصلاح ما فسد منها،هذا إذا كانت حية ،أما إذا كانت ميتة فاحتياجها إلى غيرها أشد ،فهي إذن أحق بالحدوث على حد تعبير الماتريدي.

٢-دليل الأحوال المتضادة :-

إن هذا العالم قد اشتمل على أحوال مضادة ،كالنور والظلمة وكالحرارة والبرودة ، ،وغيرها ولكنها ضبطت بمعايير متناسبة ،ونسب دقيقة متداخلة ،فلو تجاوزت هذه المقادير وتفاوتت ، لاختل نظام الكون، لكنه لم يختل ،إذن لابد من قادر قد ضبط ونسق كل شيء .

يذكر الماتريدي أن :"الحركة والسكون ،والحسن والقبح ،والاجتماع والتفرق ،والزيادة والنقصان حقائق متضادة ،والعقل البشري لا يجوز اجتماع الضدين في موضع واحد من ذات أنفسهما "(٢)،ويضيف حجة أخرى فيقول :"لان الطبائع المتضادة من حقها التدافع ،وفي ذلك التبدد والتفاني

---

١ - السابق ص ١١ .

٢ - كتاب التوحيد / ص١١٧،١٣.

"[1]،فلابد من جامع جمع هذه الأحوال المتضادة ،وقاهر قهرها على ذلك ،وبغيره لا تتلاءم ولا تنسجم، وهذه الأحوال أيضا فيها معنى التعاقب فهي إذن حادثة بدلالة الحس والعقل .

والماتريدي يرد بهذا الدليل ،على الفلاسفة القائلين بقدم الهيولى ،وبأن المادة هي التي تفعل فعلها بصفة آلية "فالإنسان من النطفة ،والشجرة من الحب "[2]وكذلك قولهم "البروز بالقوة"، وذلك بإبراز المظاهر المتضادة والأحوال المتنافرة ،ولكنها مع ذلك مسخرة مقهورة ،بالإضافة إلى ذلك فصفة التعاقب والانتقال من حال إلى حال تبدوا عليها واضحة جلية ،ومن كان ذلك شأنه ثبت له الحدوث.

٣-دليل الجواهر والأعراض :-

إن هذا العالم مكون من جواهر وأعراض ،وهذه الجواهر تتركب من أجزاء لا تتجزأ أو جواهر فردة، وهي محدثة، وسبب ذلك ؛تغيرها بتغير الأعراض الحالة فيها.

وإذا كانت الجواهر والأعراض محدثة ، فالعالم إذن محدث ، والذي أحدثه هو الله سبحانه وتعالى.

قال الماتريدي :"إن الافتراق والاتفاق جاء من قبل الأعراض ،والأعراض لا توصف بالاختلاف والاتفاق ؛لأن العرض لا يقوم بالعرض ،وإنما يقوم بالجوهر [3]،وإذا ثبت حدوث الجواهر لاتصال الأعراض بها لكونها متغيرة ولأنها أيضا متصلة بها ،لأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث تبعا للمبدأ الكلامي المشهور[4]فإنه يتوصل إلى اثبات حدوث العالم.

٤-دليل العلية أو السببية :-

وهو من أقوى الأدلة وأكثرها قناعا وأشدها تأثيراً [5].

---

[1] – السابق ص ١٤٣ .

[2] – السابق ص ١٣ .

[3] – السابق ص ١٤٢،١٤١ .

[4] – مناهج الأدلة في عقائد الملة/ ابن رشد/ تحقيق محمود قاسم / ص١٢/ ط٢/ الانجلو المصرية/ ١٩٦٤م.

[5] – الله / عباس محمود العقاد / نهضة مصر/ ص٢١٤/ ط٤/ ٢٠٠٥م/ مصر

وصورته كما عرضها الماتريدي ،أن الموجودات لابد لها من موجد "فلا نعلم كتاب بلا كاتب ولا تفرقا إلا بمفرق وكذلك الاجتماع ،وكذلك السكون والحركة ،فيلزم في جملة العالم ذلك ،إذ هو مؤلف مفرق، بل الأعجوبة في تأليف العالم أرفع، فهو أحق ألا يتفرق ولا يجتمع إلا بغيره،ثم كل ما في الشاهد من التأليف والكتابة يكون أحدث ممن به كان ،فمشله جميع العالم،إذ هو في معنى ما ذكرت"(١).

ونلاحظ في هذا الدليل ،أن دليل العلية مبني على قاعدة مشهورة عند المتكلمين ،وهي أن هذا العالم وما فيه محدث، ولابد لكل محدث من علة ،وهذا المبدأ القائل بأن لكل حادث علة ،من مبادئ الذهن الأولى، ومن القضايا التي تكاد تتفق عليها العقول ،وذلك لأن هناك مبادئ كمبدأ العلية ، ومبدأ التناقض مما لا خلاف فيه بين المذاهب الفلسفية .

وهو كما تبين من القواعد الواضحة لذلك استند إليه أبو منصور في استدلاله على وجود الله .

دليل تناهي العالم :-

عرف هذا الدليل ،منذ عهد الفلسفة اليونانية ،لدى الفيلسوف أرسطو في صورة برهان رياضي(٢)، كما خاض فيه الفكر الإسلامي للتدليل على نهاية العالم،وهذه قضية شغلت حيزا هاما من جهود متكلمي الإسلام على اختلاف اتجاهاتهم ،فقد ذكرها البغدادي في المسألة الرابعة عشرة من الأصل الثاني في كتابه (أصول الدين)(٣)،وألمع إليها الغزالي في كتابه (الاقتصاد في الاعتقاد)(٤)،وأفاض فيها الشهرستاني عند ذكر القاعدة الأولى من كتابه (نهاية الأقدام في علم الكلام)(٥).

---

١ – التوحيد / ص ١٥ .

٢ – مناهج الأدلة / د محمود قاسم / ص٢١ .

٣ – السابق / ص ٦٦ .

٤ – السابق / ص ٩٠.

٥ – السابق / ص ١٣.

وصورة هذا الدليل كما عرضه أبو منصور في كتابه (التوحيد): "أن العالم ذو أجزاء وأبعاض، ويعلم أكثر أبعاضه أنه حادث بعد أن لم يكن ، ويعلم نماؤه واتساعه وكبره، لزم ذلك في كله ،إذ لا يصير اجتماع أجزاء متناهية غير متناهية "(١).

وإذا كان الماتريدي قد أشار إلى استحالة اجتماع أجزاء متناهية غير متناهية في الكون ،فإن الماتريدية قد تعمقوا في هذا الدليل ،اعتمادا على دورات الفلك ،وضربوا لذلك مثالا واضحا بعدد دورات الشمس، فإنها أقل من عدد دورات القمر ،ويستحيل أن يكونا غير متناهيين لأن أحدهما أكثر من الثاني ، جاء في المصادر الماتريدية "أن العالم لو كان قديما بعد ما ظهر أنه لا يخلو عن الحوادث، للزم وجود حوادث لا أول لها ، وللزم أن تكون دورات الفلك غير متناهية ،وذلك محال ،لأنه لو ثبت لكان قد انقضى مالا نهاية له، ووقع الفراغ منه وانتهى ،ومن المحال الظاهر أن يتناهي ما لا يتناهي، وينقضي ما لا ينقضي، وأيضا لو ثبت أن دورات الفلك لا تتناهي ،للزم أن يوجد عددان أحدهما أقل من الآخر، وهما غير متناهين ،وهذا بين فاسد ظاهر البطلان ".

وتوضيحه أن الشمس تدور في كل سنة مرة، والقمر يدور كل شهر مرة ، فتكون عدد دورات الشمس أقل من عدد دورات القمر ،فكيف يكونان غير متناهيين وأحدهما أكثر من الثاني (٢).

إذن أثبت الماتريدي ، ومن كان على مذهبه، أن العالم متناه ،وكل متناه حادث ،فالعالم حادث .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الدليل قد نال عناية متزايدة من الماتريدية؛ لما في القول به من الأهمية البالغة التي تتمثل في الرد على القائلين بقدم العالم،وعدم تناهيه .

٥- دليل الحركة :-

ينسب هذا الدليل لأرسطو ،الذي ينتهي به إلى اثبات "المحرك الذي لا يتحرك" كما أن هذا الدليل من أهم طرق الاستدلال التي ارتضاها الفلاسفة .(٣)

---

١ - كتاب التوحيد / ص ١٢.

٢ - المسامرة بشرح المسايرة ص ٢١.

٣ - الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي/ محمد البهي / ص٤٤٣/ ط الحلبي / ط٢/ ١٩٤٨م.

وأما الماتريدي ،فقد ذكر دليل الحركة عند برهنته على حدوث الأعيان فقال :"إن الجسم لا يخلو من حركة أو سكون، وليس لهما اجتماع ،فيزول من جملة أوقاته نصف الحركة ونصف السكون، وكل ذي نصف متناه ،على أنهما لا يجتمعان في القدم ،لزم حدث أحد الوجهين ،وببطلانه ،أن يكون محدثا في الأزل لزم في الآخر ، وفي ذلك حدث ما لا يخلو عنه "[1].

يتجلى من خلال هذا النص أن كل موجود طبيعي ،ساكن أو متحرك أو متردد بين الحالتين ، فما من شيء في هذا الكون إلا ويسكن بعد حركة، وإذا كان متحركا فلا يمكن أن يكون محركا لنفسه، وإلا للزم وجوده قبل نفسه ،وهذا محال حتى الكائن الذي نقول إنه متحرك من ذاته ،فإنه منتظم من قوى، ومن أعضاء يحرك أحدها الآخر[2]،وإذا كان هذا العالم تتداول على موجوداته الحركة والسكون، وهي مدفوعة إلى ذلك مسخرة ،فثبت عندئذ أن هناك محركا دفعها إلى الحركة ، ومسكنا أجبرها على السكون وجعلها مترتبة في الزمان والمكان ومتعاقبة ،ومن اتصف بذلك كان حادثا، وهو ما يريد أن يصل إليه الماتريدي .

وهكذا يتجلى دليل الحركة والسكون كيف تأسس على فكرة زمانية مرتبطة بالحدوث لدى مختلف الأوساط الكلامية [3]،ليتوصلوا بعد ذلك إلى حدوث العالم.

وهو برهان يمكن تطويره حسب مفاهيم العصر الحديث، لأن ما نتج عن حركة بعض الأجسام من طاقات ولدت الحرارة، أحدثت نتائج علمية باهرة يمكن توظيفها من خلال بدائع الاختراع، وعظمة الله في الخلق لتؤدي إلى الإيمان الجازم لأنه من المستحيل على العقل البشري، أن يصدق أن كوناً معجزا في حركة دائبة من الذرة إلى المجرة قد وجد نتيجة الصدفة العمياء.

---

[1] – التوحيد / ص ١٢ .

[2] – الطبيعة وما بعد الطبيعة / يوسف كرم / ط مكتبة الثقافة الدينية/ ص ١٤٣/ ط١/ ٢٠٠٩م/ مصر .

[3] – أصول الدين/ البغدادي/ ص ٤٠ / ط دار الفنون التركية / ط١/ ١٩٢٨م/ تركيا

٦- وجود الشر في العالم دليل على وجود الله :-

من أهم البراهين التي امتاز بها الفكر الماتريدي، برهنته على وجود الله بوجود الشر في العالم، ذلك لأن " العالم لو كان بنفسه، لكون كل شيء لنفسه أحوالا هي أحسن الأحوال والصفات وخيـرها، فيبطل به الشرور والقبائح، فدل ذلك على موجد وهو الله "(١).

إن هذا البرهان، الذي اتخذ منه الماتريدي مسلكا للتدليل على وجود الله، لم يسبق إليه بل كان فيه مبتكرا مجددا، فلقد درج الفلاسفة والمتكلمون على انتهاج سبل الخير والجمال للتدليل على وجود الله، كما فعل افلاطون، أو برهان الغائية كما فعل أرسطو(٢).

ولكن أبا منصور جنح إلى هذا الدليل، لما له من حجة ناصعة، ذلك لأن العالم قد اشتمل على نقص وشر وقبح كما يبدوا ذلك للعقل البشري المحدود، فلو خلق نفسه، فهل كان يرضى لها بهذه النقائص والشرور والقبائح؟ إنه لو كان بنفسه لاختار أروع الأحوال وأجملها، وأبدع الصفات وأحسنها، إذن فهذا العالم كان مكونا بغيره، وهذا المكون هو الله تعالى .

وقد اقتضت حكمة الله وجود الشر لغايات حاول الماتريدي بيانها إذ ما :"من جوهر ضار إلا وفيه حكم ظاهرة، وأخرى خفية لا تستطيع العقول إدراك كنهها "(٣)،وكم من :"جوهر مر او سم إلا وفيه دواء للداء المعضل، ليعلم الناظر أن القول بالشر بالجوهر والخير خطـــأ باطل ،بل كل جوهر منه ضر ونفع، فيكون في ذلك أعظم آيات التوحيد "(٤).

ويبدوا أن الماتريدي كان مجددا في هذا الدليل، مما يدل على مكانته الهامة في تاريخ الفكر الإسلامي، وفي المدرسة الحنفية السنية على الخصوص، لما اتسم به من نزعة عقلية، وقدرة على الغوص في كنه الموجودات، وإدراك الأغراض منها، وتحليل أهدافها .

---

١ – كتاب التوحيد / ص ١٧.

٢ – مقدمة كتاب التوحيد / فتح الله خليف / ٣٤ .

٣ – التوحيد / ص ١٠٨.

٤ – السابق / ص ١١٠.

٧- دليل العناية أو التسخير :-

وهو أشهر الأدلة على وجود الله، وأثراها وأكثرها إقناعا، وملائمة للعقول البشرية، وقد اعتنى به القرآن، وتعددت أســـــاليبه فيه ،وكثرت آياته حوله ،فسمي بدليل الشرع .

وصورته كما رسم ملامحها الماتريدي في ثنايا كتابه "التوحيد":"إن الله خلق البشر في أحسن تقويم، وسخر لهم جميع ما على وجه الأرض وبركاتها وبركات السماء "[١] فكل مظاهر الوجود تسير نحو غايات معينة، وهي مسخرة لفائدة الإنسان، وليست نتيجة الصدفة والاتفاق .

والمتأمل في هذه العوالم جميعا، يجد أن الله قد أحاط الإنسان بمظاهر العناية فيها ،إذ هي متماشية مع ظروفه، متوافقة مع أحواله ،متلائمة مع حياته ،ولا يمكن أن يكون هذا التآلف نتيجة الصدفة والاتفاق، إذ يستحيل على الطبيعة وحدها أن تنتج هذا الوضع ،وهذا ما برهن عليه العصر الحديث، ودلت عليه العلوم المختلفة.

وإذا استعرضنا جميع أنواع الموجودات، بدت هذه الحقيقة المدهشة، ألا وهي خدمة هذه الكائنات- من أعظمها قوة إلى أحقرها شأنا -للنوع الإنساني ،قال تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون)النحل آية ٥-٨.

فإذا فصلنا كلام الماتريدي إلى هذا الدليل قلنا: إن في السماء الكواكب المنتشرة، والقمر ذا المنازل والتقدير، وفيها الشمس أعظم الأجرام، لو قربت أكثر مما هو مقدر لها لأهلكت الحرث والنسل من شدة الحر، ولو كانت أصغر أو ابتعدت عن مسارها، لهلك الناس من شدة البرد، ولاختلفت الأزمنة، ولاضطربت الحياة، قال تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون)يسن آية ٣٧.

فكل ما في الكون قد ضبطت غايته ، وحدد هدفه ،وتبين دوره الذي سيلعبه، قال سبحانه وتعالى (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل

---

[١] - التوحيد / ص ١٧٨.

والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بـأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)النحل آية ١٠-١١.

وإذا كان هذا شأن السماء، فشأن الأرض أعظم، ففيها السهول والجبال والمعادن والحيوانات والنباتات وكلها ذات منافع عديدة، وفوائد جليلة للإنسان، الذي هو محور هذا الكون وقطبه، قال تعالى (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) الإسراء آية ٧٠.

ويتجلى حينئذ ،من خلال هذه المنزلة المرموقة ،التي حبا بها الله الإنسان ،أن ليس هناك جفوة بين الإنسان والطبيعة، بل هي مسخرة له مهيأة للاستثمار من قبله، قال تعالى (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) لقمان آية ٢٠.

من خلال هذا يتبين أن العالم ملائم للإنسان مسخر له، وكلما كان كذلك فهو مصنوع، وصانعه هو الله تعالى.

وقد أشاد بعض الباحثين بفضل سبقه إليه، ذكر د محمود قاسم:"إننا لا ننصف الماتريدي إن لم نشر إلى استخدامه لهذا الدليل الذي يعد من أقوى الأدلة لفضل جمعه بين العقل والشرع في آن واحد "[1].

٨- دليل نظام العالم:-

ويسمى بدليل الاتقان، وبدليل التقدير، أو دليل الحكمة، إن هذا النظام البادي على الكون والصنع المتقن، والإحكام البديع، والحساب الدقيق، ليس نتيجة قوة عمياء، ولا محض الصدفة كما يدعي ذلك الماديون، بل وراء ذلك قوة مدبرة عليمة وقد ضبطت وقدرت وأتقنت كل شيء، "كالأوقات من الليل والنهار والساعات، ودخول بعضها على بعض على قدر الحاجات"[2] في تنظيم عجيب وهو المعنى المشار إليه في الآية الكريمة (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت)الملك آية ٣،[3].

---

[1] - مقدمة مناهج الأدلة / د محمود قاسم / ص ٢١ .

[2] - التوحيد / ص ٢٢ .

[3] - السابق ص ٢١_٢٢.

هكذا احتج أبو منصور على القائلين بالصدفة والاتفاق، لأن نظاما معجزا كهذا لأعظم دليل على أن الكائنات لم تخلق عبثا، بل المخلوقات جميعها تخضع لحكم معينة، وأغراض محددة ،وتسير طبق هدفها المرسوم وحسب غاياتها المقدرة.

قال بعض الفلاسفة إننا نجهل حكمة كثير من المخلوقات، لكن الماتريدي يجيبهم بأن العقول قاصرة عن إدراك الحكمة البشرية، فهل من المعقول الإحاطة بالحكمة الربوبية في جميع الموجودات؟[1]،وقد نبه الماتريدي في غير موضع من كتابه "التوحيد" بعبارات كالاتساق والاتفاق[2] والسنن الواحدة، والحساب الدقيق لجميع الموجودات، فكل شيء تبدو عليه مظاهر التنظيم في ذاته ومع غيره من الموجودات في توازن شامل مع غيره من الموجودات الأخرى.

هذه الحقائق الجلية من الظواهر الكونية في الإنسان والحيوان والمظاهر الطبيعية المختلفة التي لا تحصى ولا تعد، كلها براهين تشهد بأن وراء هذا العالم المتقن، والكون المنظم عليم حكيم قد نظمه، لأنه من المتناقضات العقلية وجود تنسيق عجيب، وترتيب بديع بلا منسق ولا مرتب.

فإذا أضفنا إلى هذا الرصيد العقائدي ما اكتشفه العلم الحديث من ضبط دقيق لما في الكون في مختلف المجالات والنواحي، توصلنا إلى الاعتقاد الراسخ مهما وردت علينا شبهات الماديين.

٩- دليل الاختراع أو الخلق: -

يعتبر دليل الاختراع من أعظم الأدلة على وجود الله، وقد اهتم به المفكرون والفلاسفة[3] بحسب بيئاتهم، وثقافاتهم، وما توصلت إليه من اكتشافات في شتى حقول المعرفة، وقد سماه الماتريدي برهان الاستدلال بالخلق، وهذا الدليل قد تكرر في آيات الكتاب الكريم.

والقرآن في هذا الدليل لا يذهب بعيدا عن الإنسان، بل يلفت نظره إلى ما تكثر مشاهدته من حوله (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت) الغاشية آية ١٧-٢٠، فهذه دعوة إلى استقراء الموجودات بصيغة "كيف"،

---

[1] - التوحيد / ص ٢٢.

[2] - السابق/ ص ٢١-٢٢

[3] - مناهج الأدلة / ص ١٩٤.

و التي تعبر عن روح العلم الحديث، أي أنه يهتم ببيان كيف تتركب الظاهرة، ولا يعنى بالبحث عن الغاية منها.

ومظاهر الاختراع في الكون تفوق الحصر، كأحوال الأرض والمعادن والنباتات والكواكب ....

قال الماتريدي :" إن تنظيمالأزمنة في الشتاء والصيف ... أو تقدير السماء والأرض، أو تسيير الشمس والقمر والنجوم، أو أغذية الخلق أو تدبير معاش جواهر الحيوان فإن ذلك كله يدور على مسلك واحد، ونوع من التدبير وانساق ذلك على سنن واحدة، لا يتم بمدبرين، لذلك لزم القول بالواحد "(١).

وقال في تفسيره:" إن الأعجوبة في الدلالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته في خلق الصغير من الجثة والجسم أكبر من الكبار منها والعظام؛ لأن الخلائق لو اجتمعوا على تصوير صورة من نحو البعوض والذباب، وتركيب ما يحتاج إليه من الفم والأنف والرجل واليد ما قدروا "(٢).

وهكذا نبه الماتريدي على ظاهرة الخلق، وما اشتملت عليه من دقة الصنع، وإلى ظاهرة الإتقان في خلق السماوات والأرض وظاهرة الخلق والاتقان تشمل شتى مظاهر الوجود مما أدركته عقولنا ومما لم تدركه بعد هذه المظاهر التي أحكم الماتريدي استغلالها من حيث العقل والنقل في البرهنة على وجود الله، فأحدث بذلك أثراً كبيراً في الفكر الإسلامي القديم والحديث.

□

---

١ - التوحيد / ص ٢١.

٢ - تأويلات أهل السنة/ الماتريدي/ تحقيق فاطمة يوسف الخيمي/ ج١ ص٧٨/ ط مؤسسة ناشرون/ ط١/ ٢٠٠٤م/ بيروت لبنان.

القضية الثانية : أفعال العباد : -

مشكلة خلق الأفعال من أعقد القضايا التي واجهت الفكر البشري، واختلفت بشأنها الأنظار اختلافا كبيرا ، في شتى المذاهب الفلسفية والدينية قديما وحديثا.

وتاريخ هذه القضية في الإسلام يعود إلى الفتن التي جدت في الصدر الأول كمقتل عثمان، ومعركة الجمل وصفين، حيث بدأ المسلمون يتساءلون عن معنى الإيمان والكفر، وعن المعاصي أهي بقضاء نافذ وأمر لا مرد له كما تروج ذلك السلطة الأموية، أم أن الإنسان مسؤول عما يقترفه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؟ وما هي حدود تلك المسؤولية؟

وقد أشار الماتريدي في معرض حديثه عن الجبرية ،إلى أولئك الذين أضافوا الأفعال الذميمة إلى قضاء الله وقدره، وساعدوا بني مروان في تبرير ما أمسكوا من زمام السلطة، وما قاموا به من قتل في صفوف المسلمين إبان الفتنة الكبرى.

واختلفت آراء المسلمين في هذه المعضلة، وتوزعت أنظارهم، فمن قائل بأن الإنسان خالق لأفعاله، إلى قائل بالجبر، ثم إلى قائل بالتوسط، والعدل هو المذهب المتوسط بينهما حسب رأي أبي منصور(١).

واتجه كل فريق إلى القرآن يطلب منه تأييداً ،فأهل الجبر أوردوا آيات تدعم مذهبهم كقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة لهم عذاب عظيم)البقرة آية ٧،وقوله تعالى (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله)الأعراف آية ١٨٨ ،وغيرها من الآيات .

كما أورد القائلون بالاختيار آيات تؤيد اتجاههم كقوله تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة) المدثر آية ٤١، وكقوله (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) فصلت آية ٤٦.

وهناك آيات توحي بدلالتي الجبر والاختيار معا كقوله تعالى (فما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) النساء آية ١٣.

بين الماتريدي والقدرية :-

---

١ – السابق نفس الصفحة .

والبداية هنا قول النبي صلى الله عليه وسلم (القدرية مجوس هذه الأمة) سنن أبو داود وقد أجمع أهل الكلام على ذم القدرية ،وتبرأ كل واحد من هذا التشبيه قولا وعقداً.(١)

ويشير الماتريدي إلى أوجه الشبه بين المعتزلة والمجوس ليصل من خلال ذلك إلى أن القدرية المذكورين في الحديث هم المعتزلة ،فيذكر أولا عقيدة المجوس ،ثم يعقب بالتطبيق على آراء المعتزلة فيقول :"إن الأوجه التي وقع بها ذم المجوس تتمثل فيما يلي :

١- قولهم :"كان اله واحد لا شريك له ،ثم حدثت منه فكرة رديئة ،إما لما أصابته عينه، أو لما ظن أن يكون له عدوا ينازعه ،فإذا ابليس حدث من تلك الفكرة الرديئة، فخلق هو شر العالم، والله خيره، من غير أن كان لله قدرة على خلق شيء من الشر والفساد ونحو ذلك ،أو لأبليس قدرة على خلق شيء من الخير والصلاح ،فقام العالم بها ،وبهذا كله خالفوا أهل الأديان ومعلوم أن هذا كله أوصاف ذم ونعوت شين، ثم للمعتزلة عن كل صفة من هذه الصفات نصيب ،فلذلك لقبوا باسم القدرية "(٢).

ووجه الشبه بين المعتزلة والمجوس ظاهر حسب رأي الماتريدي وهو عدم إرادة الشر فضلا عن خلقه .

ويشرح أبو منصور رأي هؤلاء ويرد عليهم بقوله :"والمعنى الذي دعا المجوس إلى القول باثنين ما استقبحوا من إضافة خلق الشر وفساد الأشياء إلى الله ،وكذلك المعتزلة ،ولو عرفوا حق معرفة الربوبية ،أنه وضع كل شيء موضعه، وأنه المتعالي عن أن يكون فعله ،لنفع له أو لخير يكتسبه لنفسه، لعلموا أن الوصف بخلق الكل على ما عليه وصف القدرة والجلال ،والقول به قول بتمام الملك والكبرياء "(٣).

١- التوحيد / ص ٣١٤-٣٢٠.

٢- التوحيد ص ٣١٤.

٣- السابق / ص ٣١٥.

وهكذا يتضح كيف نظر الماتريدي إلى الشر نظرة شمولية مرتبطة بالخير ،وبنظام العالم وتناسقه، وبشمول قدرة الله لكل شيء وتمام الربوبية وكمالها .

٢-زعم المعتزلة أن القدرة الإنسانية شاملة للخير والشر ،وبهذا يكون البشر أعم قدرة من الله، الذي يختـــص بفعل الخير ،وهم في قولهم هذا يبدون أكثر مغالاة من المجوس(١) .

٣-اتفاقهم مع المعتزلة في نظرية حدوث العالم، ويوضح الماتريدي رأي أهل العدل والتوحيد فيقول: "إن الله كان ولا شيء غيره، ثم حدثت الإرادة، فكان بحدوثها جميع العالم اختيار، فسمت المعتزلة تلك الحادثة إرادة، والمجوس فكرة، وهي واحدة، بينهما اختلاف في الاسم لا في الحقيقة "(٢.

ومن الواضح أن الماتريدي قد شبه "الفكرة" عند المجوس بـ"الإرادة " عند المعتزلة، فحصل بينهما التناظر حسب رأيه.

تلك هي بعض أوجه التشابه أقامها الماتريدي بين المعتزلة والمجوس، وبذلك يكونون هم المعنيون في الحديث (القدرية مجوس هذه الأمة) لنسبتهم القدر إلى الإنسان.

فهو إذن قد رسم الخطوط الرئيسية لهذه المعركة الفكرية، حول نسبة القدرية في الحديث الشريف (القدرية مجوس هذه الأمة) لأن كلا من أهل السنة والمعتزلة حاول التخلص من هذه التسمية، واجتهد في الصاقها بالطرف المقابل ٣.

وإذن فالقدرية المشبهة بالمجوس في الحديث هم المعتزلة؛ لقولهم بحرية الإنسان، وبأنه خالق الأفعال وقادر عليها، ووجه الشبه بينهم: إما لأن (القدرية :المعتزلة)كالمجوس في القول بالحرية، وإما لأنهم يقولون بأن الله خالق الإنسان، وأن الإنسان خالق لأفعاله الاختيارية المباشرة ،فأشبهوا المجوس

---

١ - السابق نفس الصفحة .

٢ - السابق نفس الصفحة .

٣ - شرح الأصول الخمسة/ عبد الجبار/ تحقيق عبدالكريم عثمان/ ص٧٧٣/ ط وهبة / القاهرة.

الذين يقولون بأن الخالق اثنان :خالق الخير (اهورمزدا)،وخالق الشر (أهرمن) فوجه الشبـــــه هو القول بخالقين (١).

ويبدوا أن القدرية قد برزت للوجود بعد عصفت بالمسلمين أحداث جسام وبدأ الناس منشغلين بهذه الكبائر المقترفة، وحملها بعضهم كالجبرية على الله سبحانه، معتقدين أن الإنسان مسير وليس مخير.

ذلك ما دعا القدرية إلى القول بأن الإنسان له قدرة على أعماله ؛حتى يوقفوا هذا الجمع من أولئك الذين يريدون حمل معاصيهم على الله تعالى، وقد ساعد على نمو هذا التيار الفكري ،ما في القرآن من دعوة إلى التأمل والتدبر، وما اشتمل عليه من آيات تفيد الجبر والاختيار ،وما توافد على المسلمين من آراء في هذا الشأن من الفلسفة اليونانية المنقولة إلى السريانية، ومناقشات الزرادشتية والنصرانية في هذا الميدان، وشتى التيارات الثقافية الشرقية والغربية على السواء.

بين الماتريدي والجبرية :-

ويقابل القدرية الجبرية ،وهم الذين نفوا الفعل حقيقة عن العبد ،وأضافوه إلى الرب تعالى، فالإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة ،وإنما هو مجبور في أفعاله ،لا قدرة له ،ولا إرادة، ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات ،وتنسب الأفعال مجازا ،كما تنسب إلى سائر الجمادات (٢)،كما يقال :أثمرت الشجرة ،وجرى الماء ،وتحرك الحجر، وطلعت الشمس وغربت، وتغيبت السماء وأمطرت ،واهتزت الأرض وأنبتت(٣)،كذلك يقال: قام علي، وحكم الحاكم ،وعصى فلان ،كلها نوع واحد على طريق المجاز .

---

١ – المعتزلة بين الفكر والعمل / علي الشابي ،عبدالمجيد النجار، أبولبابة حسين/ ص ٧٧.

٢ – التوحيد / ص ١٥.

٣ – الملل والنحل / الشهرستاني ، ج٢،ص ٨٧.

والجبر له أنواع منه :الجبر الخالص الذي نفى القدرة عن العبد أصلا ،ومنها الجبر المتوسط الذي أثبت للعبد قدرة ولكنها غير مؤثرة ،وبالغ المعتزلة فنعتوا مختلف الاتجاهات الفكرية المخالفة بالجبر، بل لقد أثبتوا اسم الجـــبر على القائلين بالكسب أيضا .

وزعيم الجبرية جهم بن صفوان ، وموقفه مرتبط بنفي الصفات فهو قد ارتأى أن الله لا يوصف بصفة يوصف بها خلقه، فكذلك لا يوصف الإنسان بالفعل لأن الفعل والخلق من شؤون الله .

وفي تحقيق الفعل للإنسان يكون التشابه بين الخالق والمخلوق .

وقد أشار الماتريدي (١) إلى أن مستندهم النقلي هو قوله تعالى (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم)الرعد آية ١٦ .

ونتائج الفكر الجبري خطيرة على المجتمعات والأفراد لأنها تصير الفرد لا قيمة له ،والمجتمع كالقطيع، أو كالخشبة بين يدي الأمواج ،وتزرع في النفوس التواكل والتواني ،وفي الجبر محو للتكاليف، وهدم للشريعة، وإبطال لحكم العقل، ولا يمكن أن يتصور العقل الإنسان مسلوب الحرية، لأنه بدونها تنهار فلسفتنا الاجتماعية ،ولن تكون هناك أخلاق أو ديموقراطية حقيقية .

ويبدو أن فكرة الجبر قد كانت لها علاقة وثيقة بالواقع الاجتماعي ،والصراع السياسي الذي جد في الصدر الأو، من ذلك أن السلطة الأموية قد تبنت هذا المذهب وأشاعته في مختلف الأوساط خاصة لدى العامة؛ لأنه إذا كان الله هو خالق الأفعال الإنسانية كما تقول الجبرية ،أي أن الإنسان مسير، وكل فعل له ،مقدر ،فالحاكم الظالم ليس مسؤولا عن أفعاله ،ولا يستطيع أحد لومه ،بل هو أداة الله التي تنفذ بواسطتها الإرادة الإلهية .

وما دام فعل الحاكم الجائر مرادا من الله ،ومقدرا منه ،فليس لأحد أن يقاومه ،او يعترض عليه؛ لأنه فعل ذلك ،فهو يقاوم إرادة الله .يتضح إذن أن الماتريدي قد أدرك أبعاد الفكر الجبري السياسية والاجتماعية والاقتصادية ،وهو فكر لصيق بالواقع لتبرير المعاصي ،وما يقترف من الظلم ،وما يبتز من الأموال .

---

١ – التوحيد / ص ٢٢١.

آراء الماتريدي في خلق الأفعال :-

الماتريدي لا يرتضي هذه المواقف الفكرية من خلق الأفعال ؛ذلك لأن الإنسان ليس حرا بإطلاق، وليس مجبرا جبرا محضا ،وإنما العدل كما ذهب أبو منصور هو المذهب المتوسط بينهما بدليل قوله سبحانه :(وكذلك جعلناكم أمة وسطا)البقرة آية ١٤٣،وقول الرسول عليه السلام (خير الأمور أوسطها) (١).

ويرفض أبو منصور فكرة الجبر رفضا قاطعا ،ويرى أن من يحرم الإنسان من الفعل يعد مكابرا، مبتعدا عن جادة الحق، لأن تحقيق الفعل لازم بالسمع والعقل ،فأما السمع فله وجهان :" الأمر به والنهي، والثاني الوعيد والوعد له على تسمية ذلك في كل هذا فعلا ،من نحو قوله تعالى : (اعملوا ما شئتم)فصلت آية ٤٠،وقوله: (وافعلوا الخير)الحج ٧٧،وفي الجزاء (يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) البقرة ١٦٧،وقوله (جزاء بما كانوا يعملون)الواقعة ٢٤،وقوله :(فمن يعمل مثقال ذرة)الزلزلة٧،وغير ذلك من النصوص التي تثبت الفعل للإنسان ،ولو بصفة جزئية، ولو انتفى هذا المقدار لما كان هناك معنى للأمر والنهي ،والوعد والوعيد ،وليس في إضافتها لله سبحانه نفي لمشاركة الإنسان بل هي لله خلقا وإيجادا ،وللإنسان كسبا واختياراً "٢ .

ولو كان الفعل لله مطلقا ،لبطل العمل بكثير من الآيات كقوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) النحل آية ٩٠،ولانضافت إلى الله سبحانه الطاعة والمعصية ،وارتكاب الفواحش والمنكرات، وأنه المأمور والمنهي والمثاب والمعاقب .

ثم إن الله تعالى قد أعد الثواب لمن أطاعه في الدنيا ،والعقاب لمن عصاه ،فإذا كان الأمران فعله، فيصير عندئذ هو المجزي بما وعد وأوعد .

وكذلك من المحال أن يأمر أحد نفسه ،أو يطيعها أو يعصيها ،ومحال تسمية الله عبدا ذليلا مطيعا عاصيا سفيها جائراً، وقد سمى الله تعالى بهذا كله أولئك الذين امرهم ونهاهم ،فإذا صارت هذه

---

١ – السابق نفس الصفحة .

٢ – الوحيد ص / ٣٩.

الأسماء في التحقيق له فيكون هو الرب وهو الخالق والمحلوق ،وتختلط السبل وذلك مدفوع في السمع والعقل .(١)

يتضح من خلال هذه الردود ،خطأ القائلين بالجبر في نظر الماتريدي ،وكيف أظهرهم وقد التبست السبل عليهم، واختلطت المفاهيم ،وصار الخالق كالمخلوق ،والمأمور كالمنهي ،وانتفت معاني الثواب والعقاب .

والماتريدي لا يرتضي تفكير المعتزلة لحل هذا القضية لذلك فهو ينفي أن يكون الإنسان مستقلا بفعله، خالقا له، لأن الخلق والإبداع شأن من شؤون الألوهية ،لا يوصف به الإنسان ،وإنما يمتاز بقدرة كاسبة للفعل (٢)،وقد استدل الماتريدي على ذلك بما يلي :

١- وجود أحوال في أفعال العباد لا تدركها العقول ،وتستعصي على الأفهام ،وهناك أحوال أخرى تبلغها العقول، وتدركها الأفهام ،فثبت أنها من الوجه الأول ليست لهم ؛لوقوفهم حيارى أمام كنهها .

ومن الوجه الثاني لهم لعلمهم بتفاصيلها ،وإلمامهم بجوانبها ،ويشرح الماتريدي هذا الرأي اعتمادا على مبدأ الحسن والقبح العقليين فيقول:" إن أفعال العباد تخرج على حسن وقبح ،ولكن أهلها لا يعرفون مبلغ الحسن فيها ،ولا مبلغ القبح فعندئذ يثبت أن فعلهم من هذا الوجه ليس لهم "(٣).

٢- أن الأفعال مؤذية لأهلها ،ومتعبة ،ومؤلمة، وتجري أحيانا على غير ما يريد أهلها، فلو كانت من خلقهم، لما كانت كذلك، وسبب ذلك أن اللذة والألم ليست من صنعهم .(٤)

٣- أن المتعارف في الخلق ،أن لا خالق غير الله ، ولا رب سواه ، ولو جعلنا الإنسان خالقا للزمنا القول بخالق سواه.

---

١ - التوحيد / ص ٢٢٦.

٢ - السابق / ص ٢٣٥.

٣ - السابق / ص ٢٣٠.

٤ - السابق نفس الصفحة .

٤- أن أفعال الخلق في الحقيقة حركات وسكون، والله قادر عليها ، ولولا ذلك ما أقدرهم عليها، وبما أنه قد اقدر العبد ،فقد زالت عنه القدرة ،وصار قادرا بقدرة تزول ،ومن كان كذلك فهو عبد لا رب .(١)

٥- أن الخلق قد منحوا قدرة ناقصة، ورغم ذلك فلكل واحد منهم قدرة على فعل غيره، فكيف لم يكن لله قدرة على ما لعبده، وعندئذ فقدرته ناقصة .(٢)

٦- لو جاز خروج الشيء من المقدورات عن القدرة الإلهية ، فكيف نؤمن بوعده و وعيده، وكيف يطمئن السمع إلى ما وعده به من البعث أن يكون ،وهو لا يقدر على فعل بعوض ؟(٣)

٧- اتفق المسلمون على أن العالم مكون من الجواهر والأعراض، والله مكونها ،ولو أمكن للإنسان أن يخلق الأعراض لكان مشاركا لله في فعله، وبذلك تنتفي وحدانية الله في الخلق (٤) .

ويتضح من خلال هذه الأدلة كيف يرفض أبو منصور فكرة خلق الإنسان لأفعاله خلقا مستقلا عن الباري؛ وسبب ذلك أن الفعل الإنساني مجموعة عوامل مشتركة ،فإذا نظرت إليه من حيث عمل الإنسان له ،حسبته حراً مختاراً فيه ،وأما إذا تدبرته من حيث خالقه ،وهو الله عزو جل، قلت إن الله خلق الإنسان وزوده بالجوارح والقوى الفكرية، والصفات الخلقية ،والمواهب المعنوية، حكمت بأن الله قد خلق الإنسان ،ومنحه حرية جزئية ،عليها مدار الثواب والعقاب

وهكذا كان على أهل السنة أن يجدوا حلا لهذه القضية العقدية الشائكة ،فكان رائدهم الاقتصاد في الاعتقاد ،ورسموا شعارا محدداً مفاده أن لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين .

---

١ - التوحيد / ص ٢٣١.

٢ - التوحيد / ص ٢٣٢.

٣ - السابق نفس الصفحة .

٤ - التوحيد ص/ ٢٣٣.

المبحث الرابع

الوسطية العقدية وأثرها في الفرد والمجتمع

من الأمور المعروفة عند المسلمين ،أن الوسطية هي من أبرز خصائص الإسلام ،لقوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) ويعبر عن الوسطية بالتوازن والاعتدال ،والمراد بها :التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين ،بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ،وبالتالي يطرد الطرف الثاني أو المقابل، بحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ،ويطغى على مقابله ويحيف عليه ،مثال الأطراف المتقابلة والمتضادة :الربانية والإنسانية ،الروحية والمادية ،الأخروية والدنيوية ،الوحي والعقل، الماضوية والمستقبلية ،الفردية والجماعية ،الواقعية والمثالية ،الثبات والتغير ،وما شابهها .

ولهذا لا يخلو منهج أو نظام، يضعه البشر من فرد أو جماعة من الإفراط أو التفريط ،كما يدل على ذلك استقراء الواقع وقراءة التاريخ ،إن القادر على إعطاء كل شيء في الوجود ماديا كان أو معنويا حقه بحساب وميزان هو الله ،الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا ،وأحاط بكل شيء خبرا ، وأحصى كل شيء عددا ،ووسع كل شيء رحمة وعلما .

ولا عجب أن نرى هذا التوازن الدقيق في خلق الله، وفي أمر الله جميعا، فهو صاحب الخلق والأمر، فظاهرة التوازن، تبدو فيما أمر الله به وشرعه من الهدى ودين الحق ،أي :في نظام الإسلام ومنهجه للحياة ،كما تبدو في هذا الكون الذي ابدعته يد الله فأتقنت فيه كل شيء .

والإسلام يريد من الأمة الإسلامية أن تعكس ظاهرة التوازن الكونية في حياتها وفكرها وسلوكها، فتتميز بذلك عن سائر الأمم، ووسطية الأمة الإسلامية إنما هي مستمدة من وسطية منهجها ونظامها وعقيدتها، فهو منهج وسط لأمة وسط، منهج الاعتدال والتوازن الذي سلم من الإفراط والتفريط، أو من الغلو والتقصير .

وإذا كان للوسطية كل هذه المزايا، فلا عجب أن تتجلى واضحة في كل جوانب الإسلام ، نظرية وعملية، فالإسلام وسط في الاعتقاد والتصور، وسط في التعبد والتنسك ،وسط في الأخلاق والآداب، وسط في التشريع والنظام .

فهو وسط في الاعتقاد بين الخرافيين و الماديين ،وهو وسط بين الملاحدة والذين يعددون الآلهة، وهو وسط بين الذين يؤلهون الإنسان ويعتبرونه إله نفسه، يفعل ما يشاء ،وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية ،وهو وسط بين الذين يقدسون الأنبياء وبين الذين كذبوهم واتهموهم، وهو وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدرا لمعرفة حقائق الوجود ،وبين الذين لا يؤمنون إلا بالوحي والإلهام، وسط في الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكا أو شبه ملاك، وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوه حيوانا أو كالحيوان ، وهو كذلك وسط في نظرته إلى حقيقة الإنسان بين النحل والمذاهب التي تقوم على اعتباره روحا علويا سجن في جسد أرضي ، بين المذاهب المادية التي تعتبر الإنسان جسدا محضا وكيانا ماديا صرفا ،وكذلك الإسلام وسط في تشريعه ونظامه القانوني والاجتماعي ،فهو وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم ،وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة ،وهو وسط في تشريعه ونظامه الاجتماعي بين "الليبراليين "أو "الرأسماليين "الذين يدللون الفرد على حساب المجتمع ، ،وبين الماركسيين الذين يضخمون دور المجتمع بالضغط على الفرد ،والتقليل من حقوقه ،والحجر على حريته ،ومصادرة نوازعه الذاتية .

فإذا كان الإسلام وسطيا في العقيدة والعبادة والشعائر والأخلاق والتشريع ،فإن هذه الوسطية قد أثرت في بناء الفرد والمجتمع من خلال أنها قد

أصلت في الفرد والمجتمع : (إجمالا)

١- الوحدة والاجتماع

٢- التوازن بين الفردية والجماعية (الرأسمالية والشيوعية):

٣- الانسجام بين الفطرة والعقل (العلمانية والدين):

٤- التوافق بين الجسد والروح (المادية والروحية):

٥- الموازنة بين الثوابت والمتغيرات (التجديد):

٦- العدل :

٧- الاستقامة :

٨- الخير :

٩- الأمان:

١٠- القوة :

١١- إحلال السلام (وثيقة السلام):

١٢- تقبل الآخر (الأقليات الدينية):

١٣- احترام المرأة ومكانتها :

وابعدت عنه : (إجمالا)

١- الفرقة والاختلاف

٢- التيارات التي تعلي من شأن الفرد في مواجهة الجماعة ،والعكس :

٣- الاتجاهات الفكرية التي تهتم بالعقل على حساب الفطرة ،والعكس :

٤- الفلسفات التي تهتم بالجسد على حساب الروح والعكس :

٥- الجمود الزائد أو التحرر الغير مبرر.

٦- الجور والظلم :

٧- الاعوجاج :

٨- الشر :

٩- الخوف بأنواعه :

١٠- الضعف والوهن :

١١- الحروب والنزاعات :

١٢- الرفض والاعتداء على الآخر :

١٣- إهانة المرأة والتقليل من دورها ومحاولة إقصائها:

فإذا أخذنا نموذجا للتفصيل ،فإننا سنفصل الحديث حول الفرقة والخلاف ؛وذلك لمضارها الكثيرة والشديدة، وكذلك لتحذير الله تعالى لنا منها ،فنقول وبالله التوفيق :

إن أخطر مفاسد الخلاف الرئيسية ،هي ذهاب نصر الله عن الفئة المؤمنة ،والفشل وضياع القوت والهيبة، كما يقرر الله تعالى في كتابه الحكيم: {ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين} الأنفال ٤٦... والاختلاف يولد الخلاف والاختلاف بين القلوب، لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): {لا تختلفوا فتختلف قلوبكم}رواه مسلم، ويحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من مفاسد الاختلاف حتى في الوقوف في صف الصلاة: {استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم} رواه مسلم، وسنذكر بعضاً من مفاسد الخلاف الضارة وعواقبه المهلكة ،سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات الإسلامية ككل:

أولا: التمزّق وتسلط الأعداء :-

إن الاختلاف المذموم يؤدى إلى تفرق الكلمة ، وتنازع الطوائف[1]، وهو ما حذر منه القرآن الكريم والسنة المطهرة أشد تحذير، يقول القرآن الكريم بعد الأمر بتقوى الله حق تقاته، والثبات على الإسلام إلى الممات: {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا } (سورة آل عمران ١٠٣) وفي هذا السياق يقول سبحانه: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم} (سورة آل عمران ١٠٥)، فجعل تفريق الأمة شيعاً، يذوق بعضها بأس بعض، من أنواع العقوبات القدرية التي ينزلها الله بالناس إذا انحرفوا عن طريقه ولم يعتبروا بآياته.

حينما تنشغل الأمة بآلامها، وتضعف لتفرقها وتترك جهاد أعداء الدين، فلا ريب أن العدو يتربص بها، ويتسلط عليها وحاضر العالم الإسلامي برهان واقع، وتاريخها الماضي أصدق شاهد، أنه متى عز المسلمون دينهم، وأقاموا شرع الله تعالى، وامتثلوا أمره ونهيه، واجتمعوا صفا واحدا ضد عدوهم فهم الأعلون الغالبون.أما إذا ضعف الامتثال لأمر الشريعة، وتفرقت الأمة ، فهنا يتسلط العدو ويغلب وينتصر.

---

[1] – بناء الدولة "النظام العالمي ومشكلة الحكم والإدارة في القرن ال٢١"/ فرانسيس فوكوياما/ ترجمة مجاب الإمام/ ص ١٧٤بتصرف/ ط العبيكان / ط١/ ٢٠٠٧م .

فهل ينظر المسلمون إلى تاريخهم، ويتعظون بأسلافهم، ويعودون إلى الاجتماع صفا مرصوصا ويدا واحدة وجماعة متحدة، تعمل بكتاب ربها وتهتدي بسنة نبيها صلى الله عليه وسلم ضد عدوها؟ نسأل الله ذلك.

ثانيا: ذهاب القوة والضعف:-

إن من مضار الفرقة الجسيمة والتي تقع على الامة هو ذهاب قوة المسلمين: القوة المعنوية، والقوة المادية(١)، لما تسببه الفرقة من تناحر وتقاتل بين الجماعات المسلمة ،حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا ولما نزل قوله تعالى :قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ]الأنعام: ٦٥إن الفرقة متى ما دبت في الأمة قاتل بعضهم بعضا، وصار كل يريد الغلبة لنفسه، والسيادة لملكه، وكم من الدماء سفكت لتسكين ثائرتها؟ وكم من الأموال أنفقت لإسكات هذه الفرق؟ إن زعزعة الأمن، وإثارة القلاقل والفتن في المجتمع المسلم تنهك اقتصاده، وتبعثر طاقاته التي من المفترض أن تجتمع لإعمار الأرض بدين الله، والدعوة إلى توحيد المولى سبحانه

ثالثا: الهزيمة والفشل :-

مما لا شك فيه أن الهزيمة والفشل تصيب الجماعة المتفرقة، المختلفة فيما بينها، والمعترضة على قيادتها(٢)، إذ كيف ينتصرون ويغلبون وهم لم ينتصروا بعد على هوى أنفسهم، ولم يغلبوا شيطانهم ، ولقد نبه المولى سبحانه عباده المؤمنين إلى ذلك، وأمرهم بالاجتماع على طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ليتحقق لهم النصر على عدوهم، ولكن إن أبو إلا التفرق والاختلاف فالضرر لاحق بهم من الهزيمة والفشل، يقول الله عز وجل :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ٠٠٠ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ]الأنفال: ٤٥-٤٦ إن القوة والنصر مع الوحدة والجماعة، وحدة

---

١ - الإسلام والتعددية / د.محمد عمارة / ص ٢٥٣بتصرف/ ط دار الرشاد / ط١/ ١٩٩٧م

٢ - استهداف العرب والمسلمين"الحقوق المدنية في خطر"/ ايلين ك.هاغوبيان/ ترجمة د.محمد توفيق البيجرمي/ ص ٢٣بتصرف/ ط العبيكان/ ط١/ ٢٠٠٦م.

الرأي، ووحدة القيادة، ووحدة القوة، وإن الهزيمة والفشل مع الفرقة والاختلاف وتعدد القيادات حتى لو كثر العدد .

رابعا: خروج الفرق:-

تزداد الفرق ، وتفشى الفتن والبدع ،ما أن تتفرق الأمة، وتخالف أمر الله تعالى لها بالتزام الجماعة وسلوك الصراط المستقيم وتخرج على إمام المسلمين، وتقاتل الجماعة، وتوقد معها الفتنة، وتنشر معها البدعة مما يزيد الأمة وهنا، والمسلمين بلاء، ولقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخوارج : أنهم يخرجون في فرقة من الناس،وهذا شأن الفرق المبتدعة، شأن الضلالات والظلمات لا تجسر على الخروج إلا عند ضعف شمس الحق .

خامسا – وقوع العداوة والبغضاء(١):-

وقوع العداوة والبغضاء وذهاب المحبة والألفة، إن من أصول الدين العظيمة، وقواعده المهمة، التي هي من جماع الدين، ما وصى الله به ،من تأليف القلوب ،واجتماع الكلمة ،وصلاح ذات البين، ولكن يأبى أهل الفرقة والبدعة ذلك ،فما يزالون يهدمون الدين، ويفرقون قلوب المسلمين، ويوقعون بينهم العداوة والبغضاء بما يفعلونه من تفريق المسلمين شيعا وأحزابا، ولقد أخبر الله عز وجل عن حال أهل الفرقة والاختلاف من التنازع والشقاق الواقع بينهم، والذي هو مظنة إلقاء العداوة والبغضاء، قال الله تعالى (فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ]البقرة: ١٣٧ ،فهؤلاء المفارقون للجماعة، المخالفون للحق في شقاق وعداوة ومنازعة فيما بينهم، يسعون لشق عصا الطاعة ولصدع الكلمة، إن كل هذه العداوة والبغضاء بسبب تركهم ما أمروا به من الجماعة وإقامة الألفة والمحبة في المجتمع المسلم.

ولما كانت الفرقة بهذه الخطورة وهذا الضرر، جاء النهي الأكيد والتحذير الشديد من الفرقة، كما أن الله عز وجل توعد الساعي في تفريق الأمة، المفارق لجماعتها بالوعيد الشديد مما يلحق به الضرر البالغ، ومن ذلك:

---

١ – من معالم الإسلام/ محمد فريد وجدي/ ص ٢٦١/ الدار المصرية اللبنانية/ ط١/ ١٩٩٤م

أولا: الوعيد الشديد من الله تعالى لأهل الفرقة : فلقد توعد الله المفارق للجماعة المسلمة في نصوص عديدة، يقول الله تعالى :(وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا]النساء: ١١٥

ثانيا :تسويد الوجوه يوم القيامة :إن الفضيحة أن يأتي أهل الفرقة وأصحاب البدع يوم القيامة، وقد اسودت وجوههم عقابا لهم لما أحدثوه في دين الله وفرقوا به المسلمين، يقول الله تعالى :(وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُون)آل عمران: ١٠٥.

ثالثا :الشذوذ إلى النار: إن الشذوذ عن الجماعة شذوذ إلى النار ،هذا ما توعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم المفارق للجماعة، فإن مفارقته هذه ،وشذوذه عن الصراط المستقيم ،إنما هو شذوذ إلى النار والعياذ بالله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار)الترمذي.

رابعا :لا حجة له يوم القيامة :إن المفارق يأتي يوم القيامة ولا حجة له ،ولا يسأل عنه لسوء حاله، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له)صحيح مسلم .

خامسا : الحرمان من الشرب من الحوض :إن المفارق يحرم من الشرب من حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ،وما أشد عطش الناس يوم القيامة ؟! ومن أشد الحرمان أن يحرم العبد المسلم من أن يشرب من حوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم شربة لا يظمأ بعدها أبدا، ويخشى على المبتدعة المفارقين لجماعة المسلمين أن يكونوا ممن يحال بينهم وبين الشرب من الحوض، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إني على الحوض حتى أنظر من يرد علي منكم، وسيؤخذ ناس دوني، فأقول: يا رب مني ومن أمتي، فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابه) صحيح مسلم .

سادسا :الموت ميتة الجاهلية :إن هذا المفارق للجماعة لو مات وهذا حاله ،فميتته ميتة جاهلية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(من كره من أميره شيئا فليصبر ؛فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية)صحيح البخاري)،والمراد بالخروج السعي في حل عقد البيعة التي حصلت للأمير ولو بأدنى شيء.

سابعا :البعد عن التوبة: واستدراجه في معصيته ،لقد حجب الله سبحانه وتعالى التوبة عن صاحب البدعة المفارق للجماعة الخارج عن الصراط المستقيم، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله حجز – أو قال حجب – التوبة عن كل صاحب بدعة) "ظلال الجنة في تخريج السنة" وسبب بعده عن التوبة ؛أن الدخول تحت تكاليف الشريعة صعب على النفس لأنه أمر مخالف للهوى، وصاد عن سبيل الشهوات، فيثقل عليها جدا لأن الحق ثقيل، والنفس إنما تنشط بما يوافق هواها لا بما يخالفه، وكل بدعة فللهوى فيها مدخل، لأنها راجعة إلى نظر مخترعها لا إلى نظر الشارع، فعلى حكم التبع لا بحكم الأصل مع ضميمة أخرى: وهي أن المبتدع لابد له من تعلق بشبهة دليل، ينسبها إلى الشارع، ويدعي أن ما ذكره هو مقصود الشارع، فصار هواه مقصودا بدليل شرعي في زعمه، فكيف يمكنه الخروج عن ذلك؟ .

ثامنا: عدم قبول العمل وإحباطه :إن هذا المفارق للجماعة، المحدث في دين الله، المخالف لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عمله مردود عليه وإن ظن أنه حسن وصواب، أو كانت نيته حسنة فلا ينفعه ذلك ما دام أنه مخالف للسنة، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)"إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل "، أي فلا يقبل الله منه ما ابتدع وأحدث في دين الله فإنه ضلالة.

تاسعا : الحرمان من الشفاعة :إن المفارق للجماعة محروم من شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (رجلان ما تنالهما شفاعتي، إمام ظلوم غشوم، وآخر غال في الدين مارق منه)"ظلال الجنة في تخريج السنة".

عاشرا: البعد عن رحمة الله، والوقوع في عذابه تعالى إن أهل الفرقة بعيدون عن رحمة الله تعالى؛ إذ الرحمة تكون لأهل الاتفاق والائتلاف من الأمة، قال تعالى :(وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)هود: ١١٨-١١٩،فأهل الاختلاف المذكورين في الآية مباينون لأهل الرحمة ، معرضون لعذاب الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الجماعة رحمة، والفرقة عذاب) "شرح كتاب الشهاب في الحكم والمواعظ والآداب للإمام القضاعي "، فالفرقة وأهلها بعيدون عن رحمة الله، واقعون في عذاب، معرضون أنفسهم لعقوبته تعالى .

الحادي عشر:جواز قتل المفارق المفرق للجماعة: وهدر دمه لقد أجاز الشرع الحكيم قتل المفارق لجماعة المسلمين الساعي لتفريقها ،إذا لم يندفع إلا بذلك، وما ذاك إلا لخطورة فعله على الأمة، بل وجعل دمه هدرا لا دية ولا قصاص فيه ،قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنه ستكون هنات وهنات ،فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان)صحيح ابن حبان.

الثاني عشر:تسلط الشيطان عليه وملازمته له :إن شأن كل معرض عن الحق، مقبل على هواه مخلد إلى دنياه، شأنه أن يكون وليا للشيطان، تابعا له، يقول الله عز وجل :(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ)الأعراف: ١٧٥-١٧٦، فليحذر المفارق للجماعة، الساعي في تفريق كلمة المسلمين، من استزلال الشيطان إياه، وتزيينه له عمله، وليعد إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وليلزم ، جماعة المسلمين.

الثالث عشر:الذل والغضب في الدنيا :ما يلقى المفارق للجماعة من الذل في الدنيا والغضب من الله قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ)الأعراف: ١٥٢.

الرابع عشر:أن هذا المبتدع المفرق لجماعة المسلمين المفارق لصراطه المستقيم عليه إثم من عمل ببدعته وسار على ضلالته إلى يوم الدين، فياله من إثم عظيم ووزر ثقيل،قال تعالى :(لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ)النحل: ٢٥ .

السادس عشر: الفتنة وسوء الخاتمة، إن المفارق للجماعة يخشى عليه فتنة وسوء الخاتمة (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)النور: ٦٣.

من كل ما سبق نجد أننا في حاجة ماسة إلى الوسطية ؛فهي حبل النجاة ،وسفينة الإنقاذ اليوم، لأمتنا العربية والإسلامية من التيه والضياع والهلاك والدمار ،الذي يهدد حاضرها ومستقبلها ؛ فمعظم قضاياها الفكرية والعملية الكبرى تضيع فيها الحقيقة بين طرفين متباعدين ،طرف الغلو أو التطرف أو التشدد أو الإفراط سمه ما تسمه ،المهم انه هو الطرف الذي يرهق الأمة من أمرها عسرا، ويوقعها في الحرج ،ويعسر عليها ما يسر الله ،ويعقد ما سهله الدين ،ويضيق ما وسعه الشرع، لا يسمح لها برخصة ،ولا يبيح لها ما توجبه الضرورة ،ولا يعرف الظروف المخففة، ولا يؤمن بتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال، ينكفئ على الماضي ولا يعايش الحاضر ولا يستشرف المستقبل، أعمق حكمة عنده قول من قال :ما ترك الأول للآخر شيئا ،وليس في الإمكان أبدع مما كان ،ولا يقبل الآخر ولا يحاوره ،ولا يتسامح مع مخالف [1]،ولا يرى العالم إلا من منظار أسود .

والطرف الآخر طرف التسيب والتفريط والتقصير والإضاعة ،فلا يكاد يتشبث بعقيدة ،أو يتمسك بفريضة، أو يحرم حراما ،الدين عجينة لينة في يده ،يشكله كيف يشاء ،ومتى شاء ،ليس فيه ثوابت، بل كل شيء فيه قابل لاجتهاد جديد ،أو لقراءة جديدة ،تنقله من اليمين إلى اليسار ،ومن اليسار إلى اليمين، ما كان ثابتا يمكن أن ينفى ،وما كان منفيا يمكن أن يثبت ،وما كان حقا يمكن أن يصبح باطلا، وما كان باطلا يمكن أن يصبح حقا ،كما يمكن أن يخرج أصحاب القراءات الجديدة للقرآن وللسنة بدين جديد، غير الدين الذي علمه الرسول للصحابة ،وعلمه الصحابة للتابعين، ومضى عليه خير قرون الأمة، وتوارثه الخلف عن السلف ،والأحفاد عن الأجداد، وبهذا يمكن أن يكون لكل عصر دين ،ولكل بلد دين ،بل لكل مجموعة دين ،بل لكل شخص دين ،فليس الدين أمرا يجمع الأمة على كلمة سواء ،وعلى الاعتصام بحبل الله جميعا ،بل لا يمكن أن تتكون بهذا الدين أمة ،لها عقيدة واحدة ،وشريعة واحدة ،وقيم واحدة ،ورسالة واحدة ،بل الدين في هذه الحالة يفرق ولا

---

[1] – اسلام بلا مذاهب / د.مصطفى الشكعة/ ص٣٥/ الدار المصرية اللبنانية / ط١٧/ ٢٠٠٦م.

يجمع، ويباعد ولا يقرب، ويهدم ولا يبني ،لأنه يتعدد بتعدد المتغيرات ،والمتغيرات تتنوع بل وتتناقض بتعدد الثقافات والمؤثرات المعرفية والفلسفية .

لهذا كان لازما على ورثة الأنبياء من العلماء –الذين يحملون علم النبوة وميراث الرسالة – أن ينفوا عنه تحريف الغالين ،وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، و أن يتبنوا منهج الوسطية ويبينوه للناس، ويدافعوا عنه ،ويجلوا مزاياه ،محاولين أن يبقوا على حسن فهم الوسطية ،وأن يعملوا على تطبيقها على أرض الواقع، حتى يتلاقى العلم والعمل ،والفكر والسلوك، العقل والقلب ،وتصبح الأمة الإسلامية جميعا على قلب رجل واحد [1] في مواجهة كافة التحديات .

[1] – هذا هو الإسلام / د.عبدالله شحاته / ص ٢٤٧بتصرف/ نهضة مصر / ط٢/ ٢٠٠٥م.

الخاتمة

الوسطية، هي منهج في فهم الدين والعمل به ،يقوم على نبذ الغلو والتزيد -بالتشديد -على النفس أو التشديد على الآخرين، كما يقوم على نبذ التفريط والتضييع لعقيدة التوحيد ،وأحكام الشريعة وآداب الإسلام وأخلاقه وأنظمته.

العقيدة هي الإيمان الجازم بربوبية الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وأصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله تعالى في الأمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

الماتريدية هي فرقة كلامية تنسب إلى إمامها ومؤسسها أبي منصور الماتريدي، الذي ينتهي نسبه إلى الصحابي أبي أيوب الأنصاري، هي مدرسة إسلامية سنية، ظهرت في أوائل القرن الرابع الهجري في سمرقند من بلاد ما وراء النهر.

الفرد هو نواة المجتمع، ومصدر قوته، واليد العاملة فيه، المجتمع :هو:نسيج اجتماعي من صُنع الإنسان، ويتكوّن من مجموعة من النّظم والقوانين ،التي تُحدّد المعايير الاجتماعية التي تترتّب على أفراد هذا المجتمع.

يسلك الماتريدية في بحث قضايا العقيدة ،منهجا وسطا يجمع بين دلالتي العقل والنقل فالعقل وحده عرضة للخطأ ،والأدلة النقلية تهديه وترشده و تحميه من الخطأ ،ومن القضايا التي طبقت فيها الماتريدية هذا المنهج قضية وجود الله تعالى فقد نهجت فيها منهج جامع بين النقل والعقل مستند إلى إشارات القرآن الكريم واستدلالاته ،وإلى السنة النبوية المطهرة، ومرورا بالصالح من أدلة المتكلمين، وأخذا بما في المكتشفات العلمية من حقائق تقود إلى الإيمان الجازم ،وتفند شبه الملاحدة ومن شاكلهم ،القضية الثانية هي قضية خلق أفعال العباد حيث يرى الماتريدي أن الإنسان ليس حرا بإطلاق، وليس مجبرا جبرا محضا ،وإنما العدل هو المذهب المتوسط الذي مفاده أن لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين

الوسطية قد أثرت في بناء الفرد والمجتمع من خلال أنها قد أصلت في الفرد والمجتمع: الوحدة، التوازن ،الانسجام، التجديد، العدل ،الاستقامة ،الأمان، القوة، تقبل الآخر ،احترام المرأة ومكانتها، وابعدت عنه كل ما هو عكس ذلك.

لذلك يجب على الجميع أن يتبنى منهج الوسطية ،وأن يدافع عنه ،وأن يظهروا مزاياه ،محاولين أن يبقوا على حسن فهم الوسطية، وأن يعملوا على تطبيقها على أرض الواقع ،حتى يتلاقى العلم والعمل، والفكر والسلوك ،العقل والقلب ،وتصبح الأمة الإسلامية جميعا على قلب رجل واحد في مواجهة كافة التحديات .

المصادر

١- القرآن الكريم

٢- ابن ماجه سنن/ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي/ ط دار احياء الكتب العربية

٣- أبو داود سنن/ ط دار الحديث / ١٩٨٨م / مصر .

٤- البخاري/ شرح ابن حجر العسقلاني / ط دار الحديث / القاهرة / ٢٠٠٤م/ مصر

٥- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ أبو نعيم الأصفهاني/ ط دار الفكر / ١٩٩٦م/ بيروت لبنان.

٦- الطبري تفسير/ تحقيق د بشار عواد معروفو عصام فارس/ ط مؤسسة الرسالة/ ط١/ ١٩٩٤م/ بيروت .

٧- لسان العرب/ ط دار المعارف / بدون تاريخ .

٨- مسلم / تحقيق عصام الصبابطي/ ط دار الحديث / ط ٤/ ٢٠٠١م/ مصر .

المراجع

٩- الله / عباس محمود العقاد / نهضة مصر/ ط٤/ ٢٠٠٥م

١٠- الإسلام والتعددية / د.محمد عمارة / ص ٢٥٣بتصرف/ ط دار الرشاد / ط١/ ١٩٩٧م

١١- إسلام بلا مذاهب / د.مصطفى الشكعة/ ص٣٥/ الدار المصرية اللبنانية / ط١٧/ ٢٠٠٦م.

١٢- استهداف العرب والمسلمين "الحقوق المدنية في خطر"/ ايلين ك.هاغوبيان/ ترجمة د.محمد توفيق البيجرمي/ ص ٢٣بتصرف/ ط العبيكان/ ط١/ ٢٠٠٦م.

١٣- أبو منصور حياته وآراؤه العقدية / د.بلقاسم الغالي / ط٣/ ١٩٨٩/ ط دار التركي / تونس

١٤- أصول الدين لأبي اليسر للبزدوي / تحقيق هانز بيترلينس/ ط الازهرية/ مصر

١٥- أصول الدين/ البغدادي / ط دار الفنون التركية / ط١/ ١٩٢٨م/ تركيا

١٦- إشارات المرام من عبارات الإمام أبي حنيفة النعمان/ كمال الدين أحمد بن حسن البسنوي/ / تحقيق أحمد فريد المزيدي/ ط دار الكتب العلمية/ ط١/ بيروت/ ٢٠٠٧م.

١٧- الإبهاج بشرح المنهاج / السبكي / ط الكليات الأزهرية .

١٨- بناء الدولة "النظام العالمي ومشكلة الحكم والإدارة في القرن ال٢١"/ فرانسيس فوكوياما/ ترجمة مجاب الإمام/ ص ١٧٤ بتصرف/ ط العبيكان / ط١/ ٢٠٠٧م .

١٩- تاريخ المذاهب الإسلامية/ محمد أبو زهرة / ط دار الفكر العربي .

٢٠- تأويلات أهل السنة/ الماتريدي/ تحقيق فاطمة يوسف الخيمي/ ط مؤسسة ناشرون/ ط١/ ٢٠٠٤م/ بيروت لبنان.

٢١- تبصرة الأدلة/ أبو المعين النسفي / تحقيق د.السيد محمد الأنور عيسى/ ط المكتبة الأزهرية / ط١/ ٢٠١٠م.

٢٢- التعريف بالماتريدية / د عواد محمود عواد/ مجلة أصول الدين بالقاهرة / ٢٠١٥م

٢٣- التوحيد/ أبو منصور الماتريدي/ تحقيق د فتح الله خليف/ ط دار الجامعات المصرية/ مصر.

٢٤- توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار/ محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني/ ط المكتبة السلفية/ المدينة المنورة.

٢٥- الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي/ محمد البهي / ط الحلبي / ط٢/ ١٩٤٨م.

٢٦- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي/ د.مصطفى السباعي / ط دار الوراق

٢٧- السيف المشهو في شرح عقيدة أبي منصور/ تاج الدين أبي نصر الوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي/ تحقيق د.مصطفى صائم يبرم/ ط١ / ٢٠١١م/ تركيا.

٢٨- الشخصية من منظور علم الاجتماع / د.السيد على شتا/ ص ٢٤ بتصرف/ ط المكتبة المصرية/ ط١ / ٢٠١٠م.

٢٩- شرح الفقه الأكبر / أبو حنيفة النعمان/ شرح أبو منصور الماتريدي/ / ط دار البصائر / ط١/ ٢٠٠٩م/ مصر

٣٠- شرح العقائد النسفية/ أبو المعين النسفي/ شرح التفتازاني/ تحقيق عبدالسلام بن عبدالهادي شنار/ ط دار الدقاق/ ط١/ ٢٠٠٧م / سوريا .

٣١- شرح المعالم/ ابن التلمساني / تحقيق د.عواد محمود/ ط الأزهرية/ ٢٠٠١/ مصر.

٣٢- شرح العقيدة الطحاوية/ شرح صالح بن عبدالعزيز/ ط مؤسسة الرسالة/

٣٣- شرح الأصول الخمسة/ عبد الجبار/ تحقيق عبدالكريم عثمان/ ط وهبة / القاهرة.

٣٤- الصحائف الإلهية/ شمس الدين السمرقندي/ تحقيق د.أحمد عبدالرحمن الشريف/ الرياض.

٣٥- الطبيعة وما بعد الطبيعة /يوسف كرم /ط مكتبة الثقافة الدينية/ ط١/ ٢٠٠٩م/ مصر .

٣٦- العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلاتها/ د.محمد عبدالستارنصار/ ط٢/ ١٩٨٩/ ط دار الطباعة المحمدية / مصر .

٣٧- الفرق بين الفرق / عبدالقاهر بن طاهر البغدادي الاسفراييني/ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد/ المكتبة العصرية .

٣٨- الفرق الكلامية الإسلامية/ علي عبدالفتاح المغربي /ط٢/ ط مكتبة وهبة/ ١٩٩٥/ مصر .

٣٩- الفرد والمصير / د.علاء جواد كاظم/ دار التنوير / ط ٢٠١١ بتصرف

٤٠- قانون التأسيس العقدي / سلطان العميري / ط تكوين / ٢٠٢٠م.

٤١- الماتريدية دراسة وتقويما/ د.أحمد الحربي/ ط دار العاصمة / الرياض / السعودية .

٤٢- ما المجتمع / ج٣/ ص١٠٥٥/ المجلس الأعلى للثقافة / ط١/ ٢٠٠٥.

٤٣- المدخل إلى علم الاجتماع /د.محمد الجوهري/ص ٣٢/ط الدار الدولية للاستثمارات الثقافية/ القاهرة/ ط١/ ٢٠٠٨م

٤٤- المعتزلة بين الفكر والعمل / علي الشابي ،عبدالمجيد النجلر،أبولبابة حسين.

٤٥- الملل والنحل/ الشهرستاني/ تعليق احمد فهمي محمد/ ط دار الكتب العلمية / بيروت لبنان .

٤٦- مناهج الأدلة في عقائد الملة/ ابن رشد/ تحقيق محمود قاسم / ط٢/ الانجلو المصرية/ ١٩٦٤م.

٤٧- من معالم الإسلام/ محمد فريد وجدي/ ص ٢٦١/ الدار المصرية اللبنانية/ ط١/ ١٩٩٤م

٤٨- هذا هو الإسلام /د.عبدالله شحاته /ص ٢٤٧بتصرف/ نهضة مصر / ط٢/ ٢٠٠٥م.